الدكتور فاضل صالح السامرائي

شذرات من القضاء والجزاء

في التعبير القرآني





شذرات من القضاء والجزاء

في التعبير القرآني

- الموضوع: دراسات
- العنوان: شذرات من القضاء والجزاء في التعبير القرآني
- تأليف: الدكتور فاضل صالح السامرائي

الطَّبْعَةُ الأُولَى

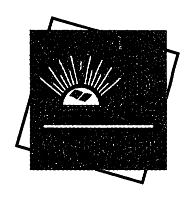
١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م

ISBN 978-614-415-287-4

ISBN 978-614-415-287-4

9 786144 152874

- الطباعة : مطابع يوسف بيضون - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
- الورق: كريم / الطباعة: لونان / التجليد: كرتونيه
- القياس: 17×24 / عدد الصفحات: 200 / الوزن: 800 غ



دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+

website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com

 /daribnkatheer  @daribnkatheer  daribnkatheer   daribnkatheer

شذرات من القضاء والجزاء
في التعبير القرآني

تأليف
الدكتور فاضل صالح السامرائي



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾



المقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وإمام المتقين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد :

فإن موضوع هذا الكتاب اختيارات من القضاء ومن الجزاء في التعبير القرآني والنظر فيها من الناحية البيانية .

وليس المقصود من القضاء وما هو بمعناه كالحكم والفصل معناها العام ، وإنما مقصودنا بهن الحكم . فإن القضاء له معانٍ عدة كالخلْق وذلك نحو قوله سبحانه : ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢] أي : خلقهنّ .

ومن معانيه : الأمر ، كقوله تعالى : ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] أي : أمر ربك .

ويكون بمعنى الفراغ ، كقوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠] أي : فرغتم .

وغير ذلك .

وكذلك الحكم ، فإنه يكون بمعنى الحكمة ، كقوله تعالى : ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] .

وأحكم الأمر: أتقنه، والحكيم: المتقن للأمور، والحكم: المنع[١].

ومن معانيه: الاعتقاد أو الفعل، سواء كان حقًّا أم باطلاً.

وقد ذكر ربنا أمثلة للفعل السيّئ والاعتقاد السيّئ وسماه حكمًا فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤]، وقال: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٥٣-١٥٤].

وغير ذلك.

وكذلك الفصل، فإنه يكون بمعنى الحجز، فمعنى فصل بين الشيئين: حجز بينهما، والفاصل: الحاجز.

وقد يوصف به القول فيكون بمعنى القول الحقّ، كقوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق: ١٣] أي: فاصل قاطع، وحقّ ليس بباطل.

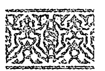
و(فصل) يكون بمعنى (خرج)، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ [يوسف: ٩٤] أي: خرجت من مصر، وقوله: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] أي: خرج للقتال.

وغير ذلك.

فالمقصود بهنّ في هذا الكتاب إنما هو الحكم كما ذكرت وليس عموم المعنى.

---

(١) انظر لسان العرب (حكم).



وكذلك الجزاء ، فإن المقصود به في هذا الكتاب إنما هو جزاء الله على الأعمال.

فإن الجزاء له معانٍ منها: الكفاية والغناء ، كقوله تعالى: ﴿ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [لقمان: ٣٣] أي: لا يغني أحدهما عن الآخر ، وقوله ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ [البقرة: ١٢٣].

ومن معانيه: المكافأة على الأعمال في الدنيا ، كقول ابنة الرجل الصالح لسيدنا موسى: ﴿ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ [القصص: ٢٥].

وغير ذلك.

فموضوع الكتاب إنما هو اختيارات من التعبير القرآني في القضاء والجزاء ـ كما ذكرت ـ والنظر فيها من الناحية البيانية ، إضافة إلى تفسير سورة فاطر بيانيًّا.

نسأله سبحانه أن ييسر لنا ذلك ، ويرزقنا علمًا نافعًا وعملاً متقبّلاً.

إنه سميع مجيب



في الفصل والقضاء

١ - يقول ربنا سبحانه في مواطن: ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ للمخاطبين.

ويقول في مواطن أخرى: ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: بين الغائبين.

والملاحظ أنه إذا قال: ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ فالمقصود الحكم بين المسلمين وغيرهم، وليس بين المسلمين أنفسهم، وذلك قوله سبحانه في المنافقين في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۝١٤٠ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ۝١٤١ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ . . .﴾ [النساء: ١٤٠ - ١٤٢] أي: يحكم بين المسلمين والمنافقين.

ونحو هذه الآية قوله سبحانه في سورة الحج: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ۝٦٧ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [الحج: ٦٧ - ٦٩].

وهذا الحكم إنما هو بين المسلمين والكافرين، كما هو واضح.

ولم يرد (يحكم بينكم يوم القيامة) بين المسلمين أنفسهم، مما يدل

على أن المسلمين أمة واحدة ، وليس بينهم من الاختلاف من نحو ما وقع بين الأمم الأخرى ، بخلاف قوله : ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فقد يكون الحكم بين اليهود وغيرهم ، وقد يكون بين اليهود أنفسهم ، وقد يكون بين المؤمنين وغيرهم .

فمن ذلك قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [البقرة : ١١٣] فالاختلاف الذي يحكم الله فيه إنما هو بين اليهود والنصارى .

وقد يكون الاختلاف بين اليهود أنفسهم ، وذلك نحو قوله سبحانه في سورة النحل : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل : ١٢٤] فإنه اختلاف بين اليهود أنفسهم في السبت ، وهو معظّم عند اليهود كما هو معلوم .

ونحو ذلك قوله تعالى في سورة يونس : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس : ٩٣] فهو في الاختلاف بين بني إسرائيل أنفسهم . ونحو ذلك ما ورد في سورة الجاثية ـ الآية ١٧ .

وذلك يدلّ على وحدة المسلمين في الدين ، وهو من نعم الله عليهم .

وقد يكون الحكم بين المؤمنين وغيرهم ، كما قال سبحانه : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [الحج : ٥٦ ـ ٥٧] وهذا الحكم إنما هو بين المؤمنين والكافرين على العموم .

وليس المقصود في هذا الحكم هو في الاختلاف بين المتخاصمين في الحقوق ونحوها ، فإن الله سبحانه يحكم بين العباد يوم القيامة فيما اختلفوا

فيه ، كما قال سبحانه : ﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر : ٤٦] وإنما هو اختلاف في الدين والمعتقدات .

وقد تقول : قد يذكر ربنا الحكم ، وقد يذكر القضاء . فقد قال سبحانه : ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ كما ذكرنا ، وقد يقول : ﴿ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [الجاثية : ١٧] فما الفرق؟

والجواب أن القضاء أمضى وأنفذ من الحكم في اللغة ، فقضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه ، والقضاء هو الفصل والقطع . والقاضي في اللغة القاطع للأمور المحكم لها(١) .

وليس الحكم كذلك ، فقد لا يقتضي الحكم الإلزام(٢) ، فقد يكون الحكم في غير المحاكم ، كالحكم بين المختلفين بأن يرتضوا حَكَمًا يحكم بينهم ، كما قال تعالى في الخلاف بين المرأة وزوجها : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ [النساء : ٣٥] .

ونحو قتل المُحرِم الصيد فجزاء ذلك مثل ما قتل من النَّعَم ﴿ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [المائدة : ٩٥] .

فالقضاء أنفذ وأتمّ ، وهو أخصّ من الحكم ، وقد جاء به مع الأخصّ ؛ ذلك أنه لم يرد ﴿ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ إلا مع وجود العلم عندهم ، وهو أخص من عدم ذكر العلم . فقد ذكر ربنا في بني إسرائيل صفات مع قوله : (يقضي) لم يرد ذكرها مع الحكم ، قال تعالى في سورة يونس : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ

---

(١) انظر لسان العرب (قضى) ، المفردات في غريب القرآن (قضى) .

(٢) المفردات في غريب القرآن (حكم) .



يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣] فقد خصّهم بصفات لم تذكر مع قوله: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾.

ونحو ذلك قوله سبحانه في الجاثية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُم بَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٦ ـ ١٧].

فهم اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم، ولم يتمكنوا من القضاء فيه مع ما آتاهم ربنا من الكتاب والعلم والحكم والنبوة والبينات.

فإن الحكم وما أوتوه من الأمور لم يقض على الاختلاف، وإن ربنا سبحانه هو الذي يقضي في ذلك.

فأنت ترى أنه خصَّهم بصفات لم يذكرها مع قوله: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾.

فاستعمل الخاصّ مع الخاصّ، والعام مع العام.

وهو من لطيف التناسب والله أعلم.

* * *

٢ ـ قال سبحانه وتعالى في سورة النحل: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ١٢٤].

وقال في سورة الحج: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

فقال في آية النحل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فذكر الحكم.

وقال في آية الحج: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ فذكر الفصل.

ذلك أن القرآن يستعمل الفصل في القضاء بين أهل الأديان المختلفة والفِرَق المتباينة، فلا يجتمعون في مكان واحد.

والمذكورون في آية الحج أصحاب أديان مختلفة فلا يجتمعون في مكان واحد، بل يفصل الله بينهم، فيكون المؤمنون في الجنة وغيرهم في النار. جاء في (روح المعاني): «والمراد بالفصل: القضاء، أي إنه تعالى يقضي بين المؤمنين والفرق الخمس المتفقة على الكفر؛ بإظهار المحقّ من المبطل، وتوفية كل منهما حقه من الجزاء، بإثابة المؤمنين وعقاب الفرق الآخرين بحسب استحقاق أفراد كل منهما.

وقيل: المراد أنه تعالى يفصل بين الفرق الست في الأحوال والأماكن جميعاً، فلا يجازيهم جزاءً واحدًا بلا تفاوت، بل يجزي المؤمنين بما يليق، واليهود بما يليق بهم وهكذا، ولا يجمعهم في موطن واحد، بل يجعل المؤمنين في الجنة وكلاً من الفرق الكافرة في طبقة من طبقات النار» [١].

وجاء في (البحر المحيط): «والظاهر أن الفصل بينهم يوم القيامة هو بصيرورة المؤمنين إلى الجنة والكافرين إلى النار... وقال الزمخشري: الفصل مطلق يحتمل الفصل بينهم في الأحوال والأماكن جميعًا فلا يجازيهم جزاءً واحدًا بغير تفاوت، ولا يجمعهم في موطن واحد» [٢].

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الممتحنة: ٣].

---

(١) روح المعاني ١٧/ ١٣٠، وانظر الكشاف ٢/ ٣٤٣، التفسير الكبير للرازي ٨/ ٢١٢.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٥٩.

وذلك في الفصل بين أعداء الله والمؤمنين ، قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة : ١] .

والآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة ، إذ أرسل رسالة مع امرأة إلى أناس من المشركين بمكة ليخبرهم بتوجه رسول الله إليهم ، فأخبر الله سبحانه رسوله بذلك(١) .

فقال سبحانه : ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ أي : لا يجمعكم في مكان واحد ، بل يكون أهل الإيمان في الجنة وأهل الكفر في النار .

جاء في (التفسير الكبير) للرازي : «﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ وبين أقاربكم وأولادكم فيدخل أهل الإيمان الجنة ، وأهل الكفر النار» (٢) .

وأما آية سورة النحل فهي في أصحاب ملة واحدة وهم اليهود ، فاستعمل الحكم .

ومن الملاحظ أنه لم يرد في القرآن استعمال الفصل بمعنى القضاء للرسول ، فلم يقل : (فافصل بينهم) ، وإنما يستعمل الحكم ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ [المائدة : ٤٢] ، ونحو قوله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء : ١٠٥] .

أو يستعمل القضاء للرسول ، قال سبحانه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء : ٦٥] .

---

(١) انظر روح المعاني ٢٨/ ٦٥ ـ ٦٦ .
(٢) التفسير الكبير ١٠/ ٥١٨ .

ولم يستعمل الأمر من الفعل (قضى) لرسول الله ﷺ ، فلم يأمر الله سبحانه رسوله بالفعل (اقضِ) ، كما أمره بالفعل (احكم) .

فالحكم أعمّ في الاستعمال ، ثم القضاء وهو أخص ، ثم الفصل وهو أخص .

* * *

٣ ـ قال سبحانه وتعالى في سورة النساء: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ﴾ [النساء: ٥٨] .

وقال في سورة المائدة: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢] .

وواضح من الفروق التعبيرية بين الآيتين ما يأتي:

آية النساء	آية المائدة
إذا	إن
حكمتم	حكمت
بين الناس	بينهم
بالعدل	بالقسط

ومن الواضح أن آية النساء في العموم ، وآية المائدة في الخصوص .

فآية النساء خطاب للمؤمنين: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ﴾ [النساء: ٥٨] .

وآية المائدة خطاب للرسول ، والكلام على اليهود ، قال سبحانه: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔاۖ . . .﴾ [المائدة: ٤٢] .



فقال في آية النساء : (حكمتم) .

وقال في آية المائدة : (حكمت) .

و(حكمتم) أعمّ من (حكمت) .

وقال في آية النساء : (إذا) ، و(إذا) في اللغة تستعمل لما هو محقق الوقوع أو كثيره .

وقال في آية المائدة : (إنْ) ، و(إنْ) تستعمل للمعاني المحتملة الوقوع والمشكوك في حصولها والموهومة والنادرة والمستحيلة وسائر الافتراضات الأخرى(١) .

وحكم المسلمين عامّ مستمر فجاء بـ (إذا) .

وأما الحكم بين اليهود فاحتمال أنه قد يكون وقد لا يكون ، وهو قليل نادر على أية حال ، فاستعمل له (إنْ) .

وقال في آية النساء : (بين الناس) .

وقال في آية المائدة : (بينهم) أي : بين اليهود .

ولا شك أن الناس أعمّ من اليهود .

وقال في آية النساء (بالعدل) .

وقال في آية المائدة : (بالقسط) .

والعدل في اللغة أوسع وأعمّ من القسط .

فإن القسط معناه الميزان والحصة والنصيب والعدل .

---

(١) انظر كتابنا (معاني النحو) ٤/ ٨٠ وما بعدها ، وانظر شرح ابن يعيش ٩/ ٢٤ ، شرح الرضي على الكافية ٢/ ٢٨٢ .

جاء في (لسان العرب): «القِسط: الميزان. . . والقسط: الحصة والنصيب، يقال: أخذ كل واحد من الشركاء قسطه، أي: حصته. . . والقِسط بالكسر: العدل»(١).

وجاء في (تاج العروس): «القسط: الحصة من الشيء، يقال: أخذ كل من الشركاء قسطه، أي: حصته. . . والقسط: القسم من الرزق الذي هو نصيب كل مخلوق»(٢).

وأما العدل فيكون في الحكم. قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

ويكون في القول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٢].

ويكون في الكتابة والإملاء: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

والتحكيم: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥].

وبين الأزواج: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩] وهو الحب والميل. جاء في (تاج العروس): في هذه الآية هو «إشارة إلى ما عليه جبلّة الناس من الميل»(٣).

وغير ذلك من المعاني.

ثم إن العدل في المعنى والاستعمال أوسع من القسط.

فالقسط ـ كما ذكرنا ـ معناه الميزان والحصة والنصيب والعدل في الحكم.

---

(١) لسان العرب (قسط).

(٢) تاج العروس (قسط).

(٣) تاج العروس (عدل).

أما العدل فله معانٍ خاصة لا علاقة لها بذلك ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١] أي : يشركون .

وقوله : ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ [البقرة: ٤٨] أي : فدية .

وقوله : ﴿ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ﴾ [المائدة: ٩٥] وذلك في جزاء قتل الصيد للمحرم .

وقوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥] .

وقوله : ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾ [الأنعام: ٧٠] .

وغير ذلك .

فآية النساء أعمّ في كلّ مفرداتها .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن القسط مناسب من ناحية أخرى ، ذلك أن (القسط) ـ كما ذكرنا ـ معناه الحصة والنصيب ، وآية المائدة هي في سياق الأموال ، فقد ذكر السارق والسارقة وحكمهما فقال سبحانه : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ٣٨] .

وهذا اعتداء على أموال الآخرين .

وذكر بعدها الذين هادوا ومحاولة تحكيمهم للرسول في مسألة ذكر الله قولهم فيها : ﴿ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ﴾ [المائدة: ٤١] .

ومما قيل فيها أنها تتعلق بالمال ، وذلك يتعلق بدية القتيل ، فإن الطائفة العزيزة تأخذ ضعف دية قتيلها ، بخلاف الطائفة الذليلة فإنها تأخذ نصف دية قتيلها ، وقيل غير ذلك[1] .

وقال في الآية التي بعدها : ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ [المائدة: ٤٢] والسحت هو الحرام وهو يتعلق بالمال ، فناسب ذكر الحكم

---

(١) انظر تفصيل ذلك في روح المعاني ٦/ ١٣٧ ، وانظر فتح القدير ٢/ ٤٠ .

بالقسط الذي من معانيه الحصة والنصيب .

وليس السياق في مثل ذلك في آية النساء ، وإنما هو في عموم المنازعات ، فقد قال سبحانه في سياق الآية : ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء : ٥٩] .

فقد قال : (في شيء) وهي أعم كلمة ، وتشمل عموم المنازعات ، فناسب العموم العموم .

وذكر بعدها الذين ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ (الآية ٦٠) .

وقال بعدها : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء : ٦٥] .

فقال : ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ وهو أمر عامّ .

فناسب ذكر الحكم بالعدل .

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه والله أعلم .

* * *

٤ ـ قال سبحانه وتعالى في سورة يونس : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [يونس : ٤٧] .

وقال في السورة نفسها أيضًا : ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [يونس : ٥٤] .

فذكر القضاء بالقسط .

وقال تعالى في سورة الزمر : ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ۝٦٨ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ

بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: ٦٨ ـ ٧٠].

وقال في السورة نفسها أيضًا: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

فذكر القضاء بالحق.

ذلك ـ والله أعلم ـ أن ما ذكره في يونس من القضاء بالقسط إنما هو في سياق الحصة والنصيب.

فقوله سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ ذكر فيه القضاء بالقسط، ذلك أنه قال قبلها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

فلما قال: ﴿لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ وكان المعنى أنه يعطيهم نصيبهم وما هو لهم؛ ناسب أن يقول: ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ والقسط هو الحصة والنصيب.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٤].

فإنه ذكر القضاء بالقسط لما ذكر الظلم وذكر المال بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ﴾ وهو المال، فناسب أن يذكر القسط وهو الحصة والنصيب.

وقال قبلها: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٥٢].

فذكر الكسب وأنهم ظلموا وأنهم يجزون بما كانوا يكسبون.

والكسب في الأصل يقال في الأموال. جاء في (لسان العرب): «الكسب طلب الرزق» ، وقال: «الكسب: الطلب والسعي في طلب الرزق والمعيشة» (١).

فناسب أن يذكر القضاء بالقسط فيعطى لكل ذي حق حقه ونصيبه.

وليس المقصود مما ذكرناه أن القضاء بالقسط لا يكون إلا في الأموال ونحوها ، بل يكون فيها وفي غيرها من الأعمال. فإنه يُوفَّى كل عامل جزاء عمله بالقسط ، أي: بالعدل فلا يظلم منه شيء ، بل يزاد عليه إذا كان مؤمنًا ، فيأخذ حصته وزيادة كما أخبر ربنا.

والجزاء بالقسط إنما هو للمؤمن وغيره ، كما قال سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ [يونس: ٤].

فالمؤمن الذي يعمل صالحًا يُجزى على مقدار إيمانه وعمله ، ذلك أن الذي يعمل إنما يريد جزاء عمله ، فربُّنا يجزيه على عمله بالقسط ، أي: يجزيه حصته ويزيده عليه.

وأما غير المؤمن فيُجزى على قدر عمله ، ولا يُظلَم شيئًا من غير زيادة ولا نقص ، وذلك هو القسط أي: العدل.

وأما قوله سبحانه في الزمر: ﴿وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩] ، وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥] فذكر القضاء بالحق لأن السياق مختلف ، فإن (الحقّ) عامّ لا يتعلق بالقضاء وحده ، وإنما يكون في القضاء وفي المعتقدات وفي الأخبار والوعود. والله هو الحق وما يدعون من دونه الباطل ، والجنة حق والنار حق وغير ذلك كثير.

---

(١) لسان العرب (كسب).

قال سبحانه: ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ [الروم: ٦٠].

وقال: ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ [الأنعام: ٦٦] وهو الإسلام.

وقال: ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ [الكهف: ٩٨].

وقال: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الإسراء: ٨١].

وقال: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ [طه: ١١٤].

وقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ [الحج: ٦].

وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقال: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [البقرة: ١١٩].

وغير ذلك كثير.

والسياق في الزمر في الشرك والمعتقدات الباطلة، فقد قال سبحانه: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ . . . إلى الآية التاسعة والستين﴾.

فذكر القضاء بالحق وهو المناسب لسياقه.

وكذلك سياق الآية الثانية.

والقضاء بالحق يعني فيما يعني مضاعفة الأجور للمؤمنين، وإعطاء صاحب الحق حقه من غير زيادة لغيرهم. وكل ذلك من الحق، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [غافر: ٧٨].

ومن الملاحظ أنه قال بعد قوله سبحانه: ﴿ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾: ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ وذلك ليعمّ القضاء جميع العباد.

فذكر النبيين والشهداء أولاً .

ثم ذكر أنه توفى كل نفس ما عملت .

فلا يختص القضاء بين النبيين والشهداء .

فعمَّ القضاء الجميع .

ثم ذكر الجزاء على العموم بعد ذلك .

فذكر سَوْق الذين كفروا إلى جهنم زمرًا وجزاءهم .

وذكر سَوْق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرًا وجزاءهم .

فوفيت كل نفس ما عملت وهو سبحانه أعلم بما يفعلون .

* * *

٥ ـ قال سبحانه وتعالى في سورة يونس : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس : ١٩] .

وقال في سورة الزمر : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر : ٣] .

فقال في آية يونس : ﴿ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

وقال في آية الزمر : ﴿ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ ﴾ بذكر (هم) دون آية يونس .

وذلك أن آية الزمر في ذكر جماعة مخصوصة ، وهم الذين اتخذوا من دون الله أولياء ، فقال : ﴿ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ ﴾ فذكر (هم) ليدلّ على الاختصاص والتوكيد ، أي : فيما هم يختلفون فيه عن الموحدين الذين يعبدون الله مخلصين له الدين .



وأما آية يونس فهي في الناس عمومًا ، ولم يذكر جماعة مخصوصة منهم ، فلم يذكر (هم) ليميزهم عن غيرهم .

وأما قوله سبحانه في آية يونس : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فليس المقصود الحكم بين المتخاصمين أمام القضاء ، وإنما المعنى ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ بتأخير القضاء بينهم إلى يوم القيامة لأهلكهم[1] . فمعنى ﴿ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ : لأهلك المبطل أو ألجأه إلى الإيمان بالآيات الملجئة إلى الإيمان. جاء في (الكشاف) : «﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ وهو تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة .

﴿ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ عاجلاً فيما اختلفوا فيه ، ولميز المحقّ من المبطل .

وسبق كلمة بالتأخير لحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار دار تكليف ، وتلك دار ثواب وعقاب»[2] .

وجاء في (روح المعاني) : «﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ بتأخير القضاء بينهم أو العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة ، فإنه يوم الفصل والجزاء . ﴿ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ عاجلاً ﴿ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ بأن ينزل عليهم آيات ملجئة إلى اتباع الحق ورفع الاختلاف ، أو بأن يهلك المبطل ويبقى المحقّ»[3] .

وأما قوله سبحانه في آية الزمر : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فإن المعنى أن الله سبحانه يحكم يوم القيامة بين المتنازعين

---

(١) انظر فتح القدير ٢/ ٤١٢ .
(٢) الكشاف ٢/ ٧٠ .
(٣) روح المعاني ١١/ ٩٠ .

ويبين المحقّ من المبطل وصحة ما ادّعاه كلٌّ من الفريقين أو بطلانه. جاء في (الكشاف): «﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ والمعنى: أن الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين»[1].

وجاء في (روح المعاني): «﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: وبين خصمائهم الذين هم المخلصون للدين، وقد حذف لدلالة الحال عليه...

﴿فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ والمعنى... أنه تعالى يفصل الخصومة بين المشركين والمخلصين فيما اختلفوا فيه من التوحيد والإشراك وادّعى كلٌّ صحة ما اتصف به بإدخال المخلصين الموحدين الجنة، وإدخال المشركين النار، أو يميزهم سبحانه تمييزاً يعلم منه حال ما تنازعوا فيه بذلك»[2].

وجاء في (فتح القدير): «﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: بين أهل الأديان يوم القيامة، فيجازي كلاً بما يستحقه... ﴿فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾: في الذي اختلفوا فيه من الدين بالتوحيد والشرك، فإنَّ كلَّ طائفة تدّعي أن الحقّ معها»[3].

* * *

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٣.

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٢٣٥.

(٣) فتح القدير ٤/ ٤٣٦.



في الجزاء

١ ـ قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

فذكر جزاءهم فقال: ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ وذلك أنه لما ذكر الأنفال في بداية السورة فقال: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ ﴾ [الأنفال: ١] والأنفال هي الأموال والغنائم، وذكر الذين ينفقون مما رزقهم ربنا سبحانه فقال: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ناسب أن يكون من الجزاء ذكر الرزق فقال: ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾.

وقال في السورة نفسها: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٤].

فذكر الرزق الكريم إضافة إلى المغفرة، وناسب ذلك ما ورد في السياق من ذكر الغنائم والأموال وما أخذ من الأسرى فقد قال: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأنفال: ٦٧] «أي: تريدون حطام الدنيا بأخذكم الفدية»[١].

---

(١) روح المعاني ١٠/٢٣.

وذكر الغنائم فقال: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾ [الأنفال: ٦٩].

وذكر ما أخذ من الأسرى من الأموال فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠].

فذكر المال والمغفرة.

وذكر المجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [الأنفال: ٧٢] فناسب ذكر الرزق الكريم مع المغفرة.

ومن الملاحظ أنه أضاف الدرجات إلى المغفرة والرزق الكريم في الآية الرابعة فقال: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وذلك أنه لما توسّع في ذكر صفات المؤمنين في سياق الآية الرابعة، ذكر أن لهم الدرجات إضافة إلى الرزق الكريم.

فقد ذكر أنهم:

١ ـ إذا ذكر الله وجلت قلوبهم.

٢ ـ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا.

٣ ـ وعلى ربهم يتوكلون.

٤ ـ الذين يقيمون الصلاة.

٥ ـ ومما رزقهم الله ينفقون.

فناسب كل تعبير مقامه الذي ورد فيه.

* * *

٢ ـ قال سبحانه وتعالى في سورة الأنفال: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ

لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٨].

وقال في سورة يونس: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس: ١٩].

فقال في آية الأنفال: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ فذكر الكتاب أنه من الله.

وقال في آية يونس: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ فذكر أن الكلمة سبقت (من ربك) ولم يقل: (من الله).

وذلك أنه لما كان التهديد والتحذير في آية الأنفال داخلاً فيه المخاطب وهو الرسول وأصحاب بدر، قال: (من الله) ولم يقل: (من ربك)، لأن المخاطب داخل في التهديد بالعذاب.

وأما آية يونس فإن المخاطب لم يكن داخلاً فيهم، وإنما قال: ﴿ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ فقال: ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ لأن القاضي لا يجوز أن تكون له علاقة بأحد المتخاصمين.

وكذلك كل ما جاء في نحو هذا التعبير(١).

وكذلك كل ما جاء في الفصل والقضاء والحكم، نحو قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس: ٩٣]، ونحوه آية الجاثية (١٧)، وآية النمل (٧٨).

ونحوه قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [السجدة: ٢٥].

---

(١) انظر سورة هود ـ الآية ١١١، فصلت ٤٥، الشورى ١٤.

ونحوه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل : ١٢٤] .

وهذا من دقائق التعبير .

* * *

٣ ـ قال سبحانه وتعالى في سورة الروم : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [الروم : ٤٤ـ٤٥] .

وقال في سورة سبأ : ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سبأ : ٤] .

فقال في سورة الروم : ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ﴾ ولم يذكر ما هو الجزاء ، وإنما قال : ليجزيهم من فضله .

وقال في سورة سبأ : ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فذكر الجزاء بالمغفرة والرزق الكريم .

وكل مناسب لموضعه الذي ورد فيه .

فقد قال سبحانه في سياق آية الروم : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم: ٣٩] أي : ذوو الأضعاف من الأجر والثواب[1] ، «والمضعف ذو أضعاف في الأجر . قال الفراء : هم أصحاب المضاعفة»[2] .

---

(١) روح المعاني ٢١/ ٤٦ .

(٢) البحر المحيط ٧/ ١٧٤ .

ومضاعفة الأجور من فضله سبحانه.

وقال سبحانه بعد: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الروم: ٤٦] فذكر ابتغاءهم من فضله سبحانه.

وقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [الروم: ٢٣] فذكر ابتغاءهم من فضله أيضًا.

فلما ذكر ابتغاءهم للفضل ناسب أن يكون الجزاء بذكر الفضل.

وقال في سورة سبأ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ فذكر المغفرة والرزق الكريم، وهو المناسب لما ورد في السورة.

فقد ذكر سبحانه تفضُّله بالرزق على عباده فقال: ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ﴾ [سبأ: ٢٤].

وذكر بسط الرزق لمن يشاء ويقدر فقال: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [سبأ: ٣٦].

وقال أيضًا: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٩].

فذكر سبحانه أنه يُخلف ما أنفق العبد من شيء، وأنه خير الرازقين، فناسب ذكر الجزاء بالرزق.

ثم إنه ذكر المغفرة أيضًا في السورة فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سبأ: ٢]، وقال: ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [سبأ: ١٥].

فناسب ذكر المغفرة في الجزاء إضافة إلى الرزق، فقال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾.

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه .

* * *

٤ ـ لقد ورد في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم قوله : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ وذلك في سورة الحجر ، الآية ٤٥ ، وسورة الدخان ، الآية ٥٢ ، وسورة الذاريات ، الآية ١٥ .

وورد في موضع واحد قوله : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ [الطور : ١٧] .

فما الفرق بين الجزاءين؟

قال تعالى في سورة الحجر : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر : ٤٥ ـ ٤٨] .

وقال في سورة الدخان : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الدخان : ٥١ ـ ٥٧] .

وقال في سورة الذاريات : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات : ١٥ ـ ١٩] .

هذا ما ورد في أصحاب الجنة والعيون .

وأما ما ورد في أصحاب الجنة والنعيم ، فهو قوله سبحانه في سورة الطور : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ

وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ١٧ ـ ٢٨].

والآن ننظر في الفرق بين الجزاءين:

فمن المعلوم أن (العيون) وهي عيون الماء جزء من النعيم أو حالة من حالات النعيم، فما ذكر في النعيم أعمّ وأعلى مما ذكر في العيون، ومن ذلك:

١ ـ أنه قال سبحانه في الحجر: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [٤٧].

وقال في الدخان: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [٥٣ ـ ٥٤].

وقال في الطور: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [٢٠].

فذكر الاتكاء على السرر المصفوفة والتزويج بالحور العين، فجمع ما في الموضعين.

٢ ـ قال في الدخان: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [٥٥].

وقال في الطور في أصحاب النعيم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [١٩] فذكر الأكل والشرب، ولم يذكر الشرب في آيات الحجر والدخان والذاريات، ولعله اكتفى بذكر العيون.

ثم قال في الطور: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [٢٢] فأضاف اللحم إلى الفاكهة.

وأما الأمن فقد أشار إليه في الطور في موضعين، هما قوله: ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [١٨]، وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [٢٦ـ٢٧].

ومعنى (مشفقين): خائفين.

وقوله: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: آمنهم من الخوف.

٣ ـ قال في الذاريات: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [١٦].

وقال في الطور: ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [١٨] أي: متلذذين.

وزاد أصحاب النعيم المذكورين في آيات سورة الطور:

أ ـ إلحاق الذرية المؤمنة بهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [٢١] ومعنى (ما ألتناهم) أي: ما نقصناهم من أجورهم شيئًا.

ب ـ وأنهم يتنازعون فيها كأسًا لا لغو فيها ولا تأثيم.

ج ـ طواف غلمان عليهم كأنهم لؤلؤ مكنون.

د ـ إقبال بعضهم على بعض، والتساؤل والحديث فيما بينهم، وذكر نعمة الله عليهم.

فجمع ما ذكره في أصحاب الجنات والعيون وزاد عليه، وهو المناسب لذكر النعيم.

ومن لطيف التناسب في الجزاء المذكور مناسبة كل حالة للمقام الذي وردت فيه:

١ ـ فقوله تعالى في الحجر مثلاً: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ مناسب لما ذكره في أصحاب الحجر وهو قوله: ﴿ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [الحجر: ٨٢ ـ ٨٤].

فأصحاب الحجر لم يغن عنهم أمنهم بل أهلكهم ربنا بالصيحة، وأما أصحاب الجنات والعيون فهم يدخلونها بسلام آمنين.

ونحوه ما ذكره في قوم لوط وهلاكهم وهو قوله: ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر: ٧٣ ـ ٧٤].

وقوله: ﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ مقابل قوله: ﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥]، وقوله: ﴿ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ [الحجر: ١١].

فذكر الاستهزاء في الدنيا وهو من الغلّ الذي في قلوبهم.

وأما أصحاب الجنة فقد نزع ربنا ما في صدورهم من غلٍّ إخوانًا على سرر متقابلين.

٢ ـ قوله تعالى في الدخان: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴾ مقابل لقوله تعالى في قوم فرعون: ﴿ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٨]، وقوله: ﴿ أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٧] وغيرها.

فذكر المقام الأمين، والجنات والعيون، مقابل الجنات والعيون والمقام الكريم وغيرها، فذهب كل ذلك وزال.

٣ ـ قوله في الذاريات: ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ﴾

مناسب لقوله: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩] فهم يعطون السائل والمحروم، والله يعطيهم، فهم يأخذون ما آتاهم ربهم، فالأخذ مقابل الإعطاء.

وغير ذلك والله أعلم.

* * *

٥ ـ قال سبحانه في سورة المائدة: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٥].

فقال: (وذلك) بالواو.

وقال في سورة الزمر: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٤].

فقال: (ذلك) بلا واو.

وهذا هو الموطن الوحيد في القرآن الذي لم تذكر فيه الواو مع قوله: (ذلك جزاء) مع الصفات (المحسنين) و(الكافرين) و(الظالمين)، وأما بقية المواطن فكلها بالواو، أي: (وذلك جزاء).

قال تعالى في سورة المائدة: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩].

وقال في سورة التوبة: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٦].

وقال في سورة الحشر: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١٧].

وقال في سورة طه: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٦].



ولعل سبب ذلك هو أن كل المواطن التي ذكرت فيها الواو تشمل أمثالهم من الظالمين أو الكافرين أو المحسنين ، إلا هذا الموطن فإن المذكورين في الآية ليس لهم نظير في الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها .

وإيضاح ذلك أنه قال تعالى في آية الزمر : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزمر : ٣٣ـ ٣٤] .

والذي جاء بالصدق إنما هو سيدنا محمد رسول الله ، وهو واحد ليس له نظير . وقيل : يحتمل أيضًا أن المقصود به أنبياء الله ، والأنبياء ليس لهم نظير . وقيل : هو جبريل(١) فلم يجئ بالواو ، بخلاف الآيات الأخرى ، فإنها كلها تشمل المذكورين وأمثالهم في الحياة ، وهم كثير .

وإيضاح ذلك أن آية المائدة الخامسة والثمانين فيمن آمن من النصارى بنبوة محمد ، ولا شك أن نظيرهم كثير . قال تعالى في سياق هذه الآية : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢ـ ٨٥] .

ونحو ذلك ما جاء في الآية التاسعة والعشرين ، وهي في ابني آدم . وقد

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٥٣ ، روح المعاني ٢٤/ ٢ ـ ٣ ، فتح القدير ٤/ ٤٥٠ ، التفسير الكبير للرازي ٩/ ٤٥٢ .



قال أحدهما لأخيه: ﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٢٩].

وأمثال هذا كثير ممن يقتلون الناس ظلمًا.

ونحو ذلك بقية الآيات المختومة بقوله: ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أو ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أو ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾

فإن أمثالهم كثير، فجيء بالواو التي للاستئناف إشارة إلى نظرائهم، إلا آية الزمر التي ختمت بقوله: ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ كما ذكرنا فلم يؤتَ بالواو فيها.

وهذا من لطيف التناسب.

ومن المناسب أن نذكر أن صاحب (البحر المحيط) قال في قوله تعالى: ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٨٥]: «﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فإما أن يكون من وضع الظاهر موضع المضمر تنبيهًا على هذا الوصف بهم، وأنهم أثيبوا لقيام هذا الوصف بهم، وهو رتبة الإحسان... وإما أن يكون أريد به العموم فيكونون قد اندرجوا في المحسنين»[(١)].

فذكر احتمالين: إما أن يكونوا المذكورين، وإما أن يكون أريد به العموم.

وأنه قال في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾: «وقيل:

---

(١) البحر المحيط ٤/ ٨.

الذي جاء بالصدق وصدّق به هو رسول الله ﷺ. وقيل: الذي جاء بالصدق جبريل ، والذي صدّق به هو محمد ﷺ. . . وقال الزمخشري: والذي جاء بالصدق وصدّق به هو رسول الله ﷺ ، جاء بالصدق وآمن به ، وأراد به إياه ومن تبعه. . . وقام الظاهر مقام المضمر في (المحسنين) أي: ذلك جزاؤهم ، فنبه بالظاهر على العلة المقتضية لحصول الثواب» [١].

فذكر إقامة الظاهر مقام المضمر ، أي: ذلك جزاؤهم. ولم يذكر احتمال إرادة العموم ، كما فعل في آية المائدة.

ولعله قال ذلك تبعًا لاختلاف المقامين ، أو اكتفى بأحدهما للدلالة على الآخر.

وعلى أية حال فنحن نرجّح ما ذكرناه لاختلاف المقام ، وهو من لطيف التناسب ، والله أعلم.

* * *

٦ ـ قال سبحانه وتعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧ ـ ٣١].

فذكر وقوفين: وقوفًا على النار ، ووقوفًا على ربهم.

أما الوقوف على النار فهو شأن الكافرين جميعًا ، وذكر من أحوالهم

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩ ، وانظر الكشاف ٣/ ٣٢.

هنا أنهم يكذّبون بآيات الله ، وأنهم ينكرون البعث ، وأنهم لم يكونوا مؤمنين ، ولذا تمنوا أن يعادوا فيؤمنوا. فناسب وقوفهم على النار ليروا عاقبة كفرهم وتكذيبهم.

وأما الوقوف على ربهم فهو مناسب لقوله بعد الآية: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ﴾ فهم كذّبوا بلقاء الله فوقفوا على ربهم وقال لهم: ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ﴾ .

ثم قال بعد الوقوفين: ﴿ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

والعذاب إنما يكون بعد الوقوفين والحساب.

ومن الملاحظات في التعبير المذكور أنه قال: ﴿ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ فأطلق العذاب ولم يذكر نوعه ، كما في مواضع أخرى كقوله تعالى: ﴿ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ أو (عذاب النار) ، ذلك أنه ذكر الكفر على العموم ولم يخصصه بنوع معين فأطلق العذاب.

وقد يقول في مواضع أخرى: ﴿ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ وذلك نحو ما جاء في آل عمران ، وذلك قوله: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [آل عمران: ١٨١].

فخصص العذاب بعذاب الحريق ؛ لأنه ذكر أمرًا مخصوصًا من المعاصي وهو قولهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ ﴿ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ .

وقال في الأنفال: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الأنفال: ٥٠].

فذكر عذاب الحريق لئلا يظن أن ما ذكره من ضرب الوجوه والأدبار هو



عذابهم دون غيره ، ثم إنه أشار إلى جملة من معاصيهم بقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال : ٤٧] فذكر أنهم خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، فناسب التخصيص بعذاب الحريق .

ثم إن ضرب الوجوه والأدبار إنما هو عند التوفِّي ، وعذاب الحريق إنما هو في النار .

وذكر ضرب الوجوه والأدبار مناسبة للمقام؛ ذلك أن المقام في الحرب، وذلك في وقعة بدر ﴿ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ . . . ﴾ [٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ . . . ﴾ [٤٥] .

فناسب ضرب الوجوه عند اللقاء ، وضرب الأدبار عند الهزيمة والإدبار .

ومن الملاحظات التعبيرية أنه قال في آية آل عمران : ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ بذكر فعل القول (نقول) .

وقال في آية الأنفال : ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ ولم يذكر القول ، ذلك أنه تردد القول في آية آل عمران فقال : ﴿ لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾ ، وقال : ﴿ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ﴾ [آل عمران : ١٨١] فناسب أن يذكر القول تعقيبًا على ما قالوا . ونحو ذلك ما ذكر في الأنعام .

وليس في آية الأنفال قول ، فأضمر القول والله أعلم .

وقد يقول : ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ مناسبة للسياق الذي يرد فيه ، وذلك نحو قوله سبحانه في سورة سبأ : ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ۝٤١ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ : ٤٠ ـ ٤٢] .

فذكر نوعًا من الكفر وهو عبادة الجن وأنهم ظلموا ، فخصص العذاب بذكر عذاب النار ؛ ذلك أنهم كانوا يكذّبون بالنار ، فقال لهم ربنا : ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ .

وقال في السجدة : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة : ٢٠] .

فذكر عذاب النار ، ذلك أنه قال في الآية : ﴿ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ ، وذكر أنهم يكذّبون بعذاب النار ، فقيل لهم : ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ . فناسب ذكر عذاب النار .

وناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه ، والله أعلم .

* * *

٧ ـ قال سبحانه وتعالى في سورة النور : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور : ٣٦ـ٣٨] .

فقال بعد قوله : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ : ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

فذكر الزيادة من فضله سبحانه وذكر الرزق ، ذلك أنه قال : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ . . . ﴾ ومن المعلوم أن التجارة والبيع إنما هما لطلب الرزق . فلما كان هؤلاء لا تلهيهم التجارة ولا البيع عن ذكر الله وما ذكر من العبادات ذكر الزيادة من فضله سبحانه وذكر الرزق .



وهو من لطيف المناسبة .

* * *

٨ ـ قال سبحانه وتعالى في سورة الزمر : ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٌ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٌ مَّبۡنِيَّةٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ [الزمر : ٢٠] .

وقال سبحانه في سورة العنكبوت : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفًا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٨ ـ ٥٩] .

وقال في سورة سبأ : ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ : ٣٧] .

فقال في الزمر : ﴿ لَهُمۡ غُرَفٌ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٌ مَّبۡنِيَّةٌ ﴾ .

وقال في العنكبوت : ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفًا ﴾ .

وقال في سبأ : ﴿ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ﴾ .

فذكر الغرف من فوقها غرف في الزمر .

وذكر في العنكبوت (الغرف) ولم يقل : من فوقها غرف .

وذكر في سبأ : (الغرفات)

ومن المعلوم في اللغة ، أن الجمع السالم إذا كان معه جمع تكسير فهو يفيد القلة[١] .

---

(١) انظر ابن يعيش ٥/ ١٠ ، سيبويه ٢/ ١٨١ ـ ١٨٢ .

فـ (الغرف) جمع كثرة .

و(الغرفات) جمع قلة . والمقصود بها هنا القلة النسبية وليس المقصود بها القلة العددية من الثلاثة إلى العشرة ، وإنما هي للقلة بالنسبة إلى غيرها وإن كانت كثيرة العدد .

فالغرف أكثر من الغرفات ، وإن كانت غرفات الجنة كثيرة في العدد .

ولعل السبب في هذا الاختلاف في الجزاء أن آية الزمر في الذين اتقوا ربهم ، وهي درجة أعلى من مجرد الإيمان والعمل الصالح ، فقد يكون من المؤمنين والذين يعملون الصالحات غير متقين . فالتقوى درجة أعلى في الإيمان والعمل الصالح .

فذكر أن لهم (غرفًا) بالكثرة ، وأن من فوقها غرفًا مبنية .

وأما آية العنكبوت ، فهي في الذين آمنوا وعملوا الصالحات الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون .

فزاد على الإيمان والعمل الصالح : الصبر والتوكل على الله .

فذكر سبحانه أنه يبوّئهم من الجنة غرفًا .

وأما المذكورون في آية سبأ فهم أقل درجة ممن قبلهم ، فإنه ذكر الإيمان والعمل الصالح ولم يزد عليهما فذكر (الغرفات) ، وهو جمع قلة بالنسبة للمذكورين .

هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى أنه قال في آية (سبأ) : ﴿ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ . و(من) تكون للمفرد وغيره ، فهي تحتمل المفرد والمثنى والجمع .

وأما (الذين) فهي للجمع حصرًا .

وقال أيضًا في (سبأ): ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بالإفراد. وقوله: ﴿عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يحتمل أن يكون العمل الصالح مفردًا من حيث اللغة.

وأما قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فهو نص في أن العاملين جمع، وأن الأعمال جمع، فقد قال: (الصالحات) وهي جمع.

فناسبت الكثرة الكثرة وهي (الغرف)، والقلة القلة وهي (الغرفات).

وهناك أمر آخر، وهو أنه قال في آية سبأ: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ فذكر أنهم في الغرفات، ولا شك أن أصحاب الجنة ليس لهم الغرفات التي يأمنون فيها وحدها، بل لا شك أن لهم غرفًا أخرى غيرها، ولا شك أن الغرف التي يكونون فيها أقل من مجموع الغرف التي لهم.

فناسب أن يقول: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ فذكر الغرفات التي هم فيها، وهي إشارة إلى أن لهم غرفًا غيرها.

وهذا من لطيف التناسب.

ثم إن كل آية وخاتمتها مناسبة للسياق الذي وردت فيه.

فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ في الزمر مناسب لما ورد قبله وبعده، وذلك قوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ [١٠]، وقوله: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [١٦]، وقوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [٧٣]، وقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [٢٨]، وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [٣٣]، وقال: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٦١] فكلها تذكر التقوى والمتقين.

ثم إن خاتمة الآية: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ مناسب لقوله سبحانه في الذين اتقوا في خاتمة السورة: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [٧٤] فربنا سبحانه صدقهم وعده والله لا يخلف الميعاد.

وأما قوله سبحانه في آية العنكبوت: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ فهو مناسب لقوله سبحانه في الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ، فناسب أن يقول: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ .

وتكرر الإيمان والعمل الصالح في السورة (انظر الآية ٧ ، والآية ٩) .

وقال: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٨] ، وقال: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [٤٥] .

فذكر من العمل الصالح ما ذكر وختمها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ وهو صفة من صفات العمل .

وذكرُ الأمن في خاتمة آية سبأ مناسب للآية بعدها: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [سبأ: ٣٨] ، ومناسب لما ورد في السورة من آيات العذاب ، ومناسب لقوله في آخر السورة: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥١] فالكافرون فزعون ، والمؤمنون آمنون في الغرفات .

وقد تقول: لقد قال في آية العنكبوت: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ﴾ فذكر أنها تجري من تحتها الأنهار وأنهم خالدون فيها ، ولم يقل مثل ذلك في آية سبأ ، مع أن كلتا الآيتين في الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلم ذاك؟

والجواب ظاهر ، فإنه ذكر في آية العنكبوت إضافة إلى الإيمان والعمل الصالح ؛ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ، فزاد في الأجر .

وإليك الفروق بين الآيتين في التعبير :



آية العنكبوت	آية سبأ
الذين آمنوا	من آمن
وعملوا الصالحات	وعمل صالحًا
غرفًا	الغرفات
تجري من تحتها الأنهار	—
خالدين فيها	—
الذين صبروا	—
وعلى ربهم يتوكلون	—

فناسب كل تعبير سياقه الذي ورد فيه.

وقد تقول: لقد ذكر الخلود في آية العنكبوت فقال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾

ولم يذكر الخلود في آية الزمر، وإنما قال: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ مع أن المذكورين في الزمر أعلى، فما السبب؟

والجواب يتضح من السياق.

فقد قال في آية العنكبوت: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ والتبويء معناه الإنزال، فمعنى بوّأته: أنزلته، ولا يعني بالضرورة السكن والإقامة، فقد يكون منزلاً وقد لا يكون. قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١].

فالتبويء في آية آل عمران هو في المقاعد للقتال، فإذا انتهى القتال انتهى هذا التبويء.

ولئلا يظن أن التبويء المذكور في آية العنكبوت موقوت لا يقتضي الخلود، قال: (خَالِدِينَ فِيهَا).

وأما آية الزمر فقد قال: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ وهو تمليك وليس تبوئًا، وهو أدوم من التبويء على العموم.

ثم إنه ذكر خلودهم في آخر السورة فقال في الذين اتقوا: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] فذكر الخلود ضمنًا وتصريحًا.

والله أعلم.

* * *

٩ ـ قال سبحانه وتعالى في سورة (ق): ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣١ ـ ٣٥].

قوله سبحانه: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: قُرِّبتْ لهم.

وقوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: في مكان غير بعيد منهم. جاء في (روح المعاني): «﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: قُرِّبَت للمتقين عن الكفر والمعاصي. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: في مكان غير بعيد بمرأى منهم بين يديهم. وفيه مبالغة ليست في التخلية عن الظرف. فـ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ صفة لظرف... وجوز أن يكون منصوبًا على المصدرية، والأصل وأزلفت إزلافاً غير بعيد... وأن يكون حالاً»[1].

والأوّاب: الكثير الرجوع إلى الله عز وجل بالتوبة، فإن معنى (آبَ): رجع[2].

---

(١) روح المعاني ٢٦/ ١٨٨ ـ ١٨٩.

(٢) لسان العرب (أوب).

جاء في (الكشاف): «والأوّاب: الرجّاع إلى ذكر الله تعالى، والحفيظ: الحافظ لحدوده تعالى»[(١)].

«والأواب والحفيظ، كلاهما من باب المبالغة، أي: يكون كثير الأوب شديد الحفظ»[(٢)].

وقوله: ﴿مَنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ذكرناه في تفسيرنا لسورة يس فلا نعيد القول فيه[(٣)].

وقوله: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: راجع إلى الله، والإنابة: الرجوع إلى الله بالتوبة وإخلاص العمل[(٤)].

وقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ «أي: سالمين من العذاب وزوال النعم، أو مسلَّمًا عليكم، يسلِّم عليكم الله وملائكته»[(٥)].

وفي (التفسير الكبير): ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ كما يقول المضيف: ادخل مصاحبًا بالسلامة والسعادة والكرامة، والباء للمصاحبة في معنى الحال، أي سالمين مقرونين بالسلامة، أو معناه: ادخلوها مسلَّمًا عليكم»[(٦)].

ومن الملاحظ أنه لم يقل: (ونقول لهم ادخلوها بسلام) أو (ويقال لهم ادخلوها...) وإنما حذف فعل القول للخطاب، ليدلَّ على أنه سبحانه خاطبهم بهذا تكريمًا لهم، فكأن الأمر حاضر حاصل، يدل على ذلك خطابه لهم سبحانه بقوله: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ بأسلوب

---

(١) الكشاف ٣/ ١٦٤، وانظر التفسير الكبير ٢٨/ ١٤٥.
(٢) التفسير الكبير ٢٨/ ١٤٥.
(٣) على طريق التفسير البياني ٢/ ٤٤.
(٤) لسان العرب (نوب)، المفردات في غريب القرآن (نوب).
(٥) الكشاف ٣/ ١٦٤.
(٦) التفسير الكبير ٢٨/ ١٤٨.

الخطاب ، فكأن الأمر واقع مشاهد .

وأما قوله : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ﴾ فهو إخبار عنهم بعد دخولهم الجنة . فلما قال لهم : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ كأنهم دخلوها ، فقال عنهم وهم فيها : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا . . . ﴾ .

وقوله : ﴿ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ يعني «البقاء الذي لا انتهاء له أبدًا» (١) .

والملاحظ أنه قال في هذه الآية : ﴿ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ ، ولم يأت لفظ (الخلود) في القرآن الكريم في غير هذه الآية ، وإنما جاء لفظ (الخلد) لمن في الجنة أو في النار ، وذلك قوله سبحانه : ﴿ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ ﴾ [يونس : ٥٢ ، السجدة : ١٤] .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ﴾ [فصلت : ٢٨] .

وقوله في الجنة : ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الفرقان : ١٥] .

ولم يأت لفظ (الخلود) إلا في آية (ق) هذه .

ولعل ذلك أن لفظ (الخلد) إنما ذكر في أصحاب النار أو أصحاب الجنة .

وأما (الخلود) فذكره لليوم ، فقال : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ . ويوم الخلود هو لأهل الجنة وأهل النار جميعًا .

فيوم الخلود لأهل النار خلودهم فيها .

ويوم الخلود لأهل الجنة خلودهم فيها .

فشمل اليوم أهل الجنة وأهل النار أجمعين .

---

(١) روح المعاني ٢٦/ ١٩٠ .



ومجموع أهل الجنة والنار أكثر من أهل الجنة خاصة أو أهل النار خاصة ، فهو يشملهم جميعًا .

فلما كثر أهل ذلك اليوم جاء بلفظ (الخلود) ، الذي هو أكثر من لفظ (الخلد) ، الذي قيل في أهل الجنة أو أهل النار .

فجاء باللفظ الذي هو أكثر في الحروف لمن هم أكثر في العدد .

وهو من لطيف التناسب .

وقوله : ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ يحتمل أن يكون معنى (المزيد) المصدر ، أي : الزيادة ، واسم المفعول ، أي : الشيء الذي يزاد عليه . جاء في (البحر المحيط) : «﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ زيادة أو شيء مزيد على ما تشاؤون . ونحوه ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾» (١) .

وجاء في (التفسير الكبير) : «إن لفظ (مزيد) يحتمل أن يكون معناه الزيادة ، فيكون كما في قوله تعالى : ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] . ويحتمل أن يكون بمعنى المفعول ، أي : عندنا ما نزيده على ما يرجون وما يكون مما يشتهون» (٢) .

وفي الآيات ترتيب في غاية الحسن ، فمن ذلك :

١ ـ تقريب الجنة للمتقين ، فقد قال : ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ ولم يقل : (قُرِّب المتقون من الجنة) ، وهذا غاية الإكرام . جاء في (روح المعاني) : «ولكرامة المتقين قيل : ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ دون : وأُزلف المتقون للجنة» (٣) .

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٢٨ .

(٢) التفسير الكبير ٢٨/ ١٤٩ .

(٣) روح المعاني ٢٦/ ١٨٩ .

٢ ـ وقال: ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ فإن التقريب درجات ، وقوله: ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ دليل على المبالغة في القرب .

٣ ـ وبشّرهم فقال لهم: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ ﴾ وأشار إلى ما يوعدون ، مما يدلّ على أن الجنة يرونها وقد أشار إليها . فكان تبشيرًا بالتقريب والمشاهدة والإخبار بأنها لهم .

٤ ـ وذكر سبب هذا الجزاء العظيم بقوله: ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ فذكر الأوّاب وهو الذي يؤوب إلى الله سبحانه .

وذكر الحفيظ وهو الحافظ لحدوده سبحانه ، فلما حفظ حدود الله حفظه الله بالخلود والسلام في الجنة ، وحفظ لهم فيها ما يشاؤون وزيادة .

والملاحظ أنه ذكر المبالغة في الوصفين: الأواب والحفيظ ، فناسب ذلك عظيم المبالغة في جزائهم .

٥ ـ ثم قال لهم: ﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾ فبشرهم بالدخول ولم يكتف بالمشاهدة .

٦ ـ وقال: ﴿ بِسَلَٰمٍ ﴾ أي: بأمان ، وذلك أنه قال: ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ والخشية خوف يشوبه تعظيم[1] . فلما خافوه في الدنيا بالغيب أمنهم في الجنة فقال: ﴿ بِسَلَٰمٍ ﴾ .

فقوله: ﴿ بِسَلَٰمٍ ﴾ مقابل الخشية .

وقوله: ﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ يقابل الخطاب بقوله: ﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾ .

فإنهم خافوه بالغيب ، فخاطبهم سبحانه بقوله: ﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾ بفعل الأمر الدالّ على الحضور .

وهو تناظر لطيف ، فقد خافوه غائبًا عنهم فأمنهم وهم محضرون

---

(١) المفردات في غريب القرآن (خشي) .

لديه ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس : ٣٢] .

والمجيء باسم (الرحمن) فيه مناسبة لطيفة ، فقد رحم الرحمن المتقين الذين يخشونه بالغيب فأدخلهم الجنة بسلام .

٧ ـ وأخبرهم بخلودهم فيها : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ .

٨ ـ وأخبرهم أن لهم ما يشاؤون فيها .

٩ ـ وأن لهم زيادة ، وقال : (مزيد) ليفيد معنى الزيادة ومعنى المفعول . جاء في (التفسير الكبير) : «وفي الآية ترتيب في غاية الحسن ؛ وذلك لأنه تعالى بدأ ببيان إكرامهم حيث قال : ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ولم يقل : قرب المتقون من الجنة بيانًا للإكرام ، حيث جعلهم ممن تنقل إليهم الجنان بما فيها من الحسان .

ثم قال لهم : (هذا لكم) بقوله : ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ ﴾ . ثم بيّن أنه أجر أعمالهم الصالحة بقوله : ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ ، وقوله : ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ . . .

ثم زاد في الإكرام بقوله : ﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾ . . .

ثم قال : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ أي : لا تخافوا ما لحقكم من قبل ، حيث أخرج أبويكم منها ، فهذا دخول لا خروج بعده منها .

ثم لما بيّن أنهم فيها خالدون قال : لا تخافوا انقطاع أرزاقكم وبقاءكم في حاجة ، كما كنتم في الدنيا ، من كان يعمَّر ينكَّس ويحتاج ، بل لكم الخلود ولا ينفد ما تمتعون به ، فلكم ما تشاؤون في أي وقت تشاؤون ، وإلى الله المنتهى» [١] .

---

(١) التفسير الكبير ٢٨/ ١٤٨ ـ ١٤٩ .

والملاحظ من ناحية أخرى أن قوله: (أزلفت) مناسب لما ورد في الجزاء من ظاهرة الحركة.

فإن في (أزلفت) معنى الحركة ، فإن التقريب حركة.

وهو مناسب لقوله في الآيات: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾. فالأواب: الكثير الرجوع إلى الله ، من (آب) بمعنى (رجع). فلما آب إلى الله ورجع إليه وتقرب إليه قرّب الله إليه الجنة.

ومناسب لقوله: ﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ فـ (جاء) حركة ، وهو مناسب لإزلاف الجنة وتقريبها وهو حركة.

ومناسب لقوله: ﴿ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ ، والإنابة: الرجوع إلى الله بالتوبة. والرجوع إلى الله حركة ، فناسب الإزلاف.

ولما تقرّب إلى الله بالإنابة قرّب الله إليه الجنة.

وقوله: ﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾ حركة.

فناسب الإزلاف في الدلالة على الحركة (أوّاب) و(جاء) و(منيب) و(ادخلوها).

وقد ذكرنا الفرق بين هذه الآية وقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الحجر: ٤٦] في كتابنا (أسئلة بيانية) ، فلا نعيد القول فيه[1].

* * *

(١) أسئلة بيانية في القرآن الكريم ج١/ ١٥٨ ـ ١٥٩ ، السؤال ٥١.



سورة فاطر

مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها وهي سورة سبأ ذكرتها في كتابي (التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم) ، وكذلك مناسبة أول السورة لخاتمتها فلا نعيد القول فيها .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [فاطر : ١] .

(الحمد) : هو الثناء على الجميل من نعمة أو غيرها[١] ، وسواء كان ذلك على صفة من صفاته الذاتية كالعلم والصبر والقدرة ، أم على عطائه وتفضله على الآخرين[٢] .

والحمد أعمّ من الشكر ؛ لأن الحمد عامّ في صفاته الذاتية وفي تفضله على الآخرين ، أما الشكر فلا يكون إلا على التفضل والنعم .

جاء في (لسان العرب) : «قال ثعلب : الحمد يكون عن يد وعن غير يد ، والشكر لا يكون إلا عن يد . . . والحمد أَعمّ من الشكر . . . والحمد والشكر متقاربان ، والحمد أَعمّهما ؛ لأَنك تحمد الإِنسان على صفاته

---

(١) البحر المحيط ١/ ١٨ ، الكشاف ١/ ٣٧ .

(٢) انظر كتابنا (لمسات بيانية) ـ تفسير سورة الفاتحة ١٣ .

الذاتية وعلى عطائه ، ولا تشكره على صفاته»[(١)] .

وقد بدئت السورة بالحمد لله للأمرين كليهما : لصفاته الجليلة ، ولنعمه وتفضله على عباده .

فقد ذكر من صفاته أنه على كل شيء قدير ، فذكر أنه فطر السماوات والأرض ، وأنه يرسل الرياح فتثير سحابًا ، وأنه خلق الناس من تراب ثم من نطفة ، وغير ذلك مما ورد في السورة .

وذكر من نعمه قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾ [فاطر : ٣] ، وقوله : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ. . . ﴾ [فاطر : ١٢] وما ذكر فيهما من النعم ، وغير ذلك .

﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي : موجدهما ومبدئهما على غير مثال . جاء في (الكشاف) : «فاطر السماوات : مبتدئها ومبتدعها»[(٢)] .

وفي (لسان العرب) : «الفطرة : الابتداء والاختراع»[(٣)] .

وجاء في (روح المعاني) : «﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي : موجدهما من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه ، فالفطر الإبداع»[(٤)] .

وذكر بعد قوله : ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾سكان السماوات وهم الملائكة ، وذلك قوله : ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا. . . ﴾ إلخ .

وذكر بعدهم سكان الأرض وهم الناس ، وذلك قوله : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ

---

(١) لسان العرب (حمد) .

(٢) الكشاف ٢/ ٥٦٨ .

(٣) لسان العرب (فطر) .

(٤) روح المعاني ٢٢/ ١٦١ .

لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا . . .﴾ ، وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ . . .﴾ .

﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾

فذكر الرسل من الملائكة .

وذكر بعدهم الرسل من الناس ، وذلك قوله : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [فاطر : ٤] ، وقوله : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ [فاطر : ٢٤ ـ ٢٥] .

وهو تناظر لطيف .

ورسل الملائكة قد يكونون للأنبياء يبلغونهم الوحي وأوامر الله .

وقد يكونون لغيرهم كالرسول إلى مريم عليها السلام ، الذي قال لها : ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ [مريم : ١٩] .

ومن الرسل الحَفَظة ، قال تعالى : ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ [الأنعام : ٦١] ، وقال : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾ [الانفطار : ١٠ ـ ١١] .

والرسل الذين يكتبون الأعمال ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٠] ، وقوله : ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ [يونس : ٢١] .

والرسل التي تتوفى العباد ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام : ٦١] .

وغير أولئك من الرسل ما الله أعلم بهم .

جاء في (روح المعاني) : «﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾ يحتمل أن يكون

معناه: جاعل الملائكة عليهم السلام وسائط بينه وبين أنبيائه والصالحين من عباده ، يبلغون إليهم رسالته سبحانه بالوحي والإلهام والرؤيا الصادقة ، أو جاعلهم وسائط بينه وبين خلقه عز وجل ، يوصلون إليهم آثار قدرته وصنعه كالأمطار والرياح وغيرهما ، وهم الملائكة الموكلون بأمور العالم» (١) .

﴿ أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ ﴾

أي اثنين اثنين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة ، وأكثر من ذلك ، وذلك قوله: ﴿ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ ﴾ . وهذه الزيادة ليست خاصة بالملائكة ، وإنما هي «مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق» (٢) .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾

هذه الفاصلة مناسبة للآية التي هي فيها ، وما ذكر فيها من مظاهر قدرته سبحانه ، من أنه فاطر السماوات والأرض ، وجاعل الملائكة رسلاً ، وأنه يزيد في الخلق ما يشاء ، فناسب ذلك ذكر قدرته سبحانه .

ثم إنه ذكر من مواطن قدرته في السورة أمورًا كثيرة ، منها ما جاء في الآية الثانية وهو قوله: ﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ ﴾ [فاطر: ٢] وذلك يدلّ على عظيم قدرته ، وقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ﴾ [فاطر: ٣] .

ومنها ما ذكره في الآية الرابعة وهو قوله: ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ [فاطر: ٤] .

وغير ذلك مما ذكره في الآية التاسعة والحادية عشرة والثالثة عشرة

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ١٦١ .

(٢) الكشاف ٢/ ٥٦٩ ، وانظر فتح القدير ٤/ ٣٢٧ .

والسادسة عشرة والثامنة عشرة وغيرها من الآيات إلى نهاية السورة ، وذلك قوله : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر : ٤٤ـ٤٥] .

فالسورة متسمة بسمة القدرة التي ابتدأت بها السورة .

وناسب قوله : ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أن يأتي بصيغة المبالغة (قدير) ، ولم يأت باسم الفاعل (قادر) ذلك أن قوله : ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يقتضي المبالغة في الوصف ، ولم يرد في القرآن اسم الفاعل (قادر) مع قوله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وهو من دقائق التعبير .

* * *

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر : ٢] .

هذه الآية فيها إشارات عظيمة إلى رحمته سبحانه بعباده ، فمن ذلك أنه قال : ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ فقال : (للناس) ولم يقل : (ما يفتح الله من رحمة) فتكون مطلقة ، فذكر أن رحمته للناس ، وهو من تفضُّله سبحانه على الناس .

ثم قال : ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ فنكّر الرحمة لتدل على العموم والإطلاق . ولم يقل : (من الرحمة) بالتعريف ، لئلا تكون الرحمة خاصة بأمر معيّن ، فجعل رحمته بهم رحمة مطلقة عامة . جاء في (الكشاف) : «وتنكيره الرحمة للإشاعة والإبهام ، كأنه قال : من أية رحمة كانت سماوية أو أرضية ، فلا أحد يقدر على إمساكها وحبسها ، وأيّ شيء يمسك الله فلا أحد يقدر على إطلاقه» [(١)] .

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٦٩ .

وجاء في (فتح الرحمن في تفسير القرآن): «﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ نعمة، ونكّرت لتشيع في جميع النعم»[١].

وجاء في (روح المعاني): «وتنكيرها للإشاعة والإبهام، أي: أيّ شيء يفتح الله تعالى من خزائن رحمته، أيّ رحمة كانت من نعمة وصحة وأمن وعلم وحكمة إلى غير ذلك مما لا يحاط به»[٢].

﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: لا أحد يقدر على إمساك رحمته ومنعها عنهم.

ثم قال: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ بلفظ العموم، أي: أيّ شيء يمسك. ولم يقل: (وما يمسكها) فيخص الرحمة، فجعل إمساكه عامًّا. جاء في (البحر المحيط): «والظاهر أن قوله: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ عامٌّ في الرحمة وغيرها؛ لأنه لم يذكر له تبيين، فهو باق على العموم في كل ما يمسك»[٣].

كما لم يقل: (وما يمسكها عنهم) ولا (ما يمسك عنهم)، فذكر سبحانه فتح الرحمة للناس، ولم يذكر إمساكها عنهم، بل جعل الإمساك عامًّا وذلك للإشارة إلى عظيم قدرته، وأنه لا يمتنع منه شيء إذا أراده سبحانه.

وفيه إشارة إلى رحمته بعباده وذلك بعدم ذكر (عنهم).

﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: فلا أحد يقدر على إرساله.

وقال: ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ ولم يقل: (فلا مرسل لها) لئلا يخص الرحمة.

ففي إرسال الرحمة قال: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ ليعود الضمير على الرحمة فلا أحد يقدر على إمساك رحمته.

---

(١) فتح الرحمن في تفسير القرآن ٥/ ٤٣٨.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٩٩.

وفي الإمساك قال: ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ ليشمل العموم ، ولم يخصَّ الرحمة ، وذلك رحمته سبحانه بالناس .

وقيل: إن ذلك للدلالة على أن رحمته سبقت غضبه. جاء في (الكشاف): «وإنما فسر الأوّل دون الثاني للدلالة على أن رحمته سبقت غضبه» (١)

وجاء في (روح المعاني): «﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: فلا أحد يقدر على إمساكها.

﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ أي: أيّ شيء يمسك ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ أي: فلا أحد يقدر على إرساله. واختلاف الضميرين لما أن مرجع الأول مبيّن بالرحمة ، ومرجع الثاني مطلق يتناولها وغيرها. وفي ذلك مع تقديم أمر فتح الرحمة إشعار بأن رحمته تعالى سبقت غضبه عز وجل. وقيل: المراد وما يمسك من رحمة إلا أنه حذف المبين لدلالة ما قبلُ عليه ، والتذكير باعتبار اللفظ وعدم ما يقوي اعتبار المعنى في التلفظ» (٢).

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: الكامل في القدرة والعلم(٣). فالذي يفعل ذلك هو القادر على كل شيء. وهو الحكيم من الحكم والحكمة ، فلا يفعل ذلك إلا عن حكمة سبحانه.

جاء في (الكشاف): «﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على الإرسال والإمساك.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٦٩ .

(٢) روح المعاني ٢٢/ ١٦٥ ، وانظر التفسير الكبير للرازي ٩/ ٢٢٢ .

(٣) انظر التفسير الكبير ٩/ ٢٢٢ .

(الحكيم) الذي يرسل ويمسك ما تقتضي الحكمة إرساله وإمساكه»[(١)].

وجاء في (روح المعاني): «﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على كل ما يشاء من الأمور التي من جملتها الفتح والإمساك.

(الحكيم) الذي يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة. . . وما أدعى هذه الآية إلى الانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عما سواه عز وجل»[(٢)].

* * *

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

خاطب الناس لتذكيرهم بنعمة الله التي تعمُّهم جميعًا ولا تخص طائفة منهم أو جماعة مخصوصة.

فقد يخاطب ربنا مجموعة من عباده لتذكيرهم بنعمة تخصهم، وذلك كأن يخاطب المؤمنين بنعمته عليهم بتأليف قلوبهم، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

أو أن يخاطبهم بكفِّ أيدي الناس عنهم، وذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ﴾ [المائدة: ١١]، وفي واقعة الأحزاب

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٦٩، وانظر البحر المحيط ٧/ ٢٩٩.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ١٦٥.

وذلك قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ [الأحزاب: ٩].

أو أن يخاطب بني إسرائيل بنعمة أنعمها عليهم، كقوله: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٤٧].

أو يخاطب فردًا بتذكيره بنعمة تخصه، كما في تذكيره سبحانه لعيسى ابن مريم سلام الله عليه، وذلك قوله: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا... ﴾ [المائدة: ١١٠].

وغير ذلك.

وفي آية فاطر هذه خاطب الناس بتذكيرهم بنعمة تعمهم جميعًا وهي أعظم النعم، فمن ذكرها وعمل بمقتضاها فاز في الدنيا والآخرة، وإلا خسر الدنيا والآخرة، وهي النعمة التي أرسل بها رسله.

إن قوله سبحانه: ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ «ليس المراد بذكر النعمة ذكرها باللسان فقط، ولكن به وبالقلب، وحفظها من الكفران والغمط. وشكرها بمعرفة حقها والاعتراف بها وطاعة موليها... والخطاب عام للجميع؛ لأنّ جميعهم مغمورون في نعمة الله» (١).

وفي (معاني القرآن) للفراء أن «ما كان في القرآن من قوله: ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ فمعناه: احفظوا، كما تقول: اذكر أيادي عندك، أي: احفظها» (٢).

وفي هذه الآية ذكر أمرين:

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٦٩، وانظر البحر المحيط ٧/ ٢٩٩.

(٢) معاني القرآن ٢/ ٣٦٦.

نعمة الخلق ، وهي الإيجاد من العدم ، فقال: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ .

والأمر الآخر إبقاؤهم بالرزق من السماء والأرض وإلا هلكوا وبادوا .

وجاء بـ (من) الاستغراقية بعد (هل) ، وذلك يعني أنه لا خالق غير الله ولا رازق يرزقهم غيره ، وقد جاء بـ(هل) منكرًا عليهم ، ولم يقل: (لا خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض) فيقرر هو سبحانه الأمر ذلك ، ولكن أراد أن يسألهم بأمر يعلمونه ويقرّونه فيقولوا: لا خالق غير الله ولا رازق من السماء والأرض غيره .

وبعد ذلك يقرر أمرًا عامًّا بناء على ذلك ، وأكثرهم ينكرونه ، وهو إنكار أن يكون إله مع الله أو دونه ، فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهي أهم مسألة في الاعتقاد وهي التوحيد .

جاء في (التفسير الكبير) للرازي في هذه الآية: «ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ لما بيّن أن الحمد لله ، وبيّن بعض وجوه النعمة التي تستوجب الحمد على سبيل التفصيل ، بيّن نعمه على سبيل الإجمال ، فقال: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ وهي مع كثرتها منحصرة في قسمين: نعمة الإيجاد ، ونعمة الإبقاء .

فقال تعالى: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى نعمة الإيجاد في الابتداء .

وقال تعالى: ﴿يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ إشارة إلى نعمة الإبقاء بالرزق إلى الانتهاء .

ثم بيّن أنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نظراً إلى عظمته ، حيث هو عزيز حكيم قادر على كل شيء ، قدير نافذ الإرادة في كل شيء ، ولا مثل لهذا ولا معبود لذاته غير هذا ، ونظراً إلى نعمته حيث لا خالق غيره ولا رازق إلا هو .

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف تصرفون عن هذا الظاهر، فكيف تشركون المنحوت بمن له الملكوت»[١].

وجاء في (روح المعاني): «ولما كانت نعم الله تعالى مع تشعُّب فنونها منحصرة في نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء، نفى سبحانه أن يكون في الوجود شيء غيره سبحانه، يصدر عنه إحدى النعمتين؛ بطريق الاستفهام الذي هو لإنكار التصديق وتكذيب الحكم، فقال عز وجل: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ ... ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ... ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ... ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ لترتيب إنكار عدولهم عن التوحيد إلى الإشراك على ما قبلها، كأنه قيل: وإذا تبين تفرُّده تعالى بالألوهية والخالقية والرازقية، فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك»[٢].

* * *

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [فاطر: ٤].

أي: وإن استمروا على تكذيبك فلك فيمن سبقك من الرسل أسوة فقد كُذِّبوا وصبروا. وجاء بالفعل (يكذّبوك) مضارعًا للدلالة على الاستمرار في التكذيب.

﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ قال: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ﴾ بتاء التأنيث الساكنة. ويجوز أن يقال: (فقد كُذِّب) إلا أن التأنيث في نحو هذا يفيد التكثير كما هو معلوم. ومما يدل على ذلك، أي دلالة التأنيث على الكثرة قوله تعالى في آل عمران: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ١٦٥ ـ ١٦٧، وانظر الكشاف ٢/ ٥٧٠.

فقال: ﴿ كُذِّبَ﴾ ذلك أن المذكورين في آية فاطر أكثر ، ذلك أنه قال: ﴿ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ ولم يقيّدهم بشيء.

في حين قال في آل عمران: ﴿ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ . ومن المعلوم أنه لم تأت جميع الرسل بالزبر والكتب. فدلّ أن الرسل المذكورين في فاطر أكثر.

وكذلك تنكير (رسل) فإنه قد يفيد التكثير. فدلّ كل من التأنيث والتنكير على الزيادة في الكثرة.

جاء في (روح المعاني): «المعنى وإن استمروا على أن يكذبوك فيما بلّغت إليهم من الحق المبين بعدما أقمت عليهم الحجة وألقمتهم الحجر ، فتأسّ بأولئك الرسل في الصبر فقد كذبهم قومهم وصبروا. . .

وتنكير رسل للتعظيم والتكثير الموجبين لمزيد التسلية والحث على التأسي والصبر على ما أصابه عليه الصلاة والسلام من قومه ، أي: رسل أولو شأن خطير وعدد كثير» (١).

وجاء في (الكشاف): «فإن قلت: ما معنى التنكير في رسل؟ قلت: معناه: فقد كذبت رسل ، أي: رسل ذوو عدد كثير وأولو آيات ونذر وأهل أعمار طوال وأصحاب صبر وعزم وما أشبه ذلك. وهذا أسلى له ، وأحثّ على المصابرة» (٢).

وقد تقول: ولم قال في آية فاطر هذه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ بالفعل المضارع ، وقال في آل عمران: (فَإِن كَذَّبُوكَ) بالفعل الماضي؟

والجواب أن التكذيب في آية آل عمران إنما هو في ذكر حادثة معينة

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ١٦٧ـ١٦٨ ، وانظر تفسير أبي السعود ٤/ ٤٧٢.
(٢) الكشاف ٢/ ٥٧٠.

وهي قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ [آل عمران: ١٨٣] فلما كان الكلام في حادثة معينة قال سبحانه: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ بالماضي.

وأما آية فاطر، فهي في مقام الدعوة والتبليغ وهي مستمرة، فناسب ذكر الفعل المضارع الدالّ على الاستمرار، «فلما كان المقام في آل عمران تعقيبًا على أمر تاريخي انقضى وحادثة معينة ذهبت، جاء بالفعل على صيغة الماضي فقال: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾.

ولما كان المقام في الثانية مقام إنذار وتبليغ ودعوة قال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ بصيغة الفعل المضارع الدالّ على التكرار والاستمرار؛ لأن الدعوة مستمرة، والتبليغ والإنذار مستمران متكرران، فجاء لكل مقام بما يناسبه» (١).

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾

أي لا إلى غيره، وتقديم الجار والمجرور يفيد الحصر. جاء في (روح المعاني): «﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ لا إلى غيره عز وجل، فيجازي سبحانه كلاًّ منك ومنهم بما يليق به.

وفي الاقتصار على ذكر اختصاص المرجع به تعالى، مع إبهام الجزاء ثوابًا وعقابًا من المبالغة في الوعد والوعيد ما لا يخفى» (٢).

إن هذه الآية وقعت بعد ركنين من أركان الإيمان، وهما الإيمان بالله وتوحيده، وذلك قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾.

والركن الآخر هو الإيمان بملائكته، وذلك قوله: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ

---

(١) التعبير القرآني ١٨٨.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ١٦٨.

رُسُلًا﴾ . وهذه الآية ذكرت الإيمان برسله .

وبعدها ذكر الإيمان باليوم الآخر ، وذلك قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ .

جاء في (التفسير الكبير) للرازي في قوله : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَۚ﴾ : «ثم لما بيّن الأصل الأول وهو التوحيد ذكر الأصل الثاني وهو الرسالة ، فقال تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَۚ﴾ .

ثم بين من حيث الإجمال أن المكذِّب في العذاب والمكذَّب له الثواب بقوله تعالى : ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ .

ثم بين الأصل الثالث وهو الحشر فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾» [(١)] .

* * *

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر : ٥] .

﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ ﴾ أي : كل ما وعد به من الجزاء وغيره حقّ ، وهو «شامل لجميع ما وعد من ثواب وعقاب وغير ذلك» [(٢)] .

﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ ﴾ أي : لا تغتروا بها فتلهيكم وتخدعكم بزينتها ومباهجها عما ستلقونه يوم المعاد وهو يوم القيامة .

﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾

الغرور صيغة مبالغة ، أي : الكثير الغرّ المبالغ فيه . وهذه صفة

(١) التفسير الكبير ٩/ ٢٢٣ .

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٠٠ .

الشيطان ، ولا تخصه بل تشمل كل من يبالغ في الغرّ والخداع ، فيزين لكم المعصية ويقول لكم : «اعملوا ما شئتم فإن الله غفور ، يغفر كل كبيرة ويعفو عن كل خطيئة» (١) .

ومن الملاحظ أنه ذكر أمرين :

الأمر الأول : أن يغتر الشخص من دون أن يخدعه أحد أو يغرّه غارّ ، وهو الذي تخدعه الدنيا بزينتها ومباهجها وما فيها ، وتسوّل له نفسه المعصية .

والأمر الآخر : أن يخدعه أحد فيزيِّن له المعصية بأساليب التزيين ونحو ذلك .

فشمل كل أنواع الغرّ .

جاء في (التفسير الكبير) للرازي : «المكلف قد يكون ضعيف الذهن قليل العقل سخيف الرأي فيغتر بأدنى شيء .

وقد يكون فوق ذلك فلا يغترُّ به ، ولكن إذا جاءه غارّ وزيّن له ذلك الشيء وهوّن عليه مفاسده وبيّن له منافع يغتر لما فيها من اللذة مع ما ينضم إليه من دعاء ذلك الغارّ إليه .

وقد يكون قوي الجأش غزير العقل فلا يغتر ولا يغرّ ، فقال الله تعالى : ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ إشارة إلى الدرجة الأولى . وقال : ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ إشارة إلى الثانية ليكون واقعًا في الدرجة الثالثة وهي العليا فلا يُغَرّ ولا يغترّ» (٢) .

ثم من الملاحظ أنه قال : ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي : فلا تغتروا بالحياة الدنيا ، فكان النهي موجهًا صورةً إلى الحياة الدنيا ، والحقيقة أنه

(١) الكشاف ٢/ ٥٧١ ، وانظر روح المعاني ٢٢/ ١٦٨ .

(٢) التفسير الكبير ٩/ ٢٢٣ .

موجه إلى المخاطبين ، وذلك أن المنهي هو الفاعل ، وذلك للإهابة بهم لينتبهوا فلا يقعوا في شرك الدنيا وحبائلها ، فكأنه ينهى الدنيا أن تغرّ الناس .

ونحو ذلك يقال عندنا في العامية لمن يراد منه أن تكون عنده عزة نفس وقوة فلا يقع في شرك المنهي عنه فيقال مثلاً : (لا يغلبك فلان) و(لا يضحك عليك فلان) أي : لا تكن ضعيف الشخصية بحيث يضحك عليك أو يخدعك ، فيأخذ حذره ويعتز بنفسه . جاء في (روح المعاني) في قوله : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ : «والمراد نهيهم عن الاغترار بها وإن توجّه النهي صورةً إليها ، نظير قوله تعالى : ﴿ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ ﴾ وقولك : لا أرينّك هنا» [1] .

هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى أنه أكد النهي بنون التوكيد الثقيلة فقال : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ﴾ ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم ﴾ ولم يقل : (فلا تغرركم الحياة الدنيا ولا يغرركم بالله الغرور) ، كما قال تعالى في موطن آخر : ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ [غافر : ٤] وذلك للأهمية ، فإن التوكيد يكون بحسب ما يقتضيه المقام والحاجة إليه . فالتوكيد يكون فيما هو أهم . فإنه سبحانه يؤكد في موطن ولا يؤكد في موطن آخر يبدو شبيهًا به ، وذلك نحو قوله تعالى في آل عمران : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ [آل عمران : ١٩٦] ، وقال في موطن آخر : ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ [غافر : ٤] فأكّد الفعل في آية آل عمران ، ولم يؤكد في آية غافر مع أن الفعل واحد ، وذلك بحسب ما يقتضيه المقام في كل موضع [2] .

---

(١) روح المعاني ٢٢/١٦٨ .

(٢) انظر التعبير القرآني ـ باب التوكيد ١٥١ .

فكان الأصل في نحو هذا التعبير أن يقال: (فلا تغتروا)، ثم العدول إلى (فلا تغرركم) من دون توكيد، ثم التوكيد (فلا تغرنكم) بنون التوكيد الخفيفة ثم الثقيلة.

فجاء بما هو أكثر توكيدًا وذلك للأهمية، وذلك لأن الأمرين اللذين ذكرهما هما أكثر ما يغرّ الناس وهما:

الحياة الدنيا وما فيها.

والغَرور، وأول الغارّين: الشيطان، وهو الذي غرّ أبوينا آدم وحواء فأخرجهما من الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ﴾ [الأعراف: ٢١ - ٢٢]، وقال عنه سبحانه: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

* * *

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

لما قال في الآية السابقة: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ قال في هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾ ليبين لهم أن الشيطان هو الغرور الأكبر. جاء في (التحرير والتنوير): «وأظهر اسم الشيطان في مقام الإضمار للإفصاح عن المراد بالغرور أنه الشيطان»[1]. وتقديم (لكم) في قوله: ﴿لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾ للاهتمام[2].

﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ «بمخالفتكم إياه في عقائدكم وأفعالكم وكونوا على

---

(١) التحرير والتنوير ٩/ ٢٦٠.
(٢) روح المعاني ٢٢/ ١٦٨.

حذر منه في مجامع أحوالكم» [(١)].

ولم يقل: (إن الشيطان لكم عدو مبين) كما قال في مواضع أخرى من القرآن الكريم، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨، ٢٠٨، الأنعام: ١٤٢] وغيرها.

ذلك أنه لو قال: (عدو مبين) لم يحتج إلى قوله: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، فإن معنى (عدو مبين) ظاهر العداوة ومظهرها، وإذا كان ظاهر العداوة أو مظهرها لم يحتج إلى أن يقول: (فاتخذوه عدوًّا). ولذا لم يرد في القرآن الكريم بعد قوله: (عدو مبين): (فاتخذوه عدوًّا).

ولم يرد قوله: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ في القرآن الكريم في غير هذه الآية.

وهو من لطيف مراعاة المقام.

﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فذكر غرض عداوته وعاقبتها، وهي أن يكونوا من أصحاب السعير. وجاء بـ(إنما) للقصر، أي: ليست دعوته إلا لذلك.

* * *

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [فاطر: ٧].

ثم ذكر عاقبة الفريقين: (الذين كفروا) وهم حزب الشيطان، و(الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وهم أعداؤه. وبدأ بعاقبة الذين كفروا لما ذكر قبل الآية الشيطان وحزبه، فناسب تقديمهم. جاء في (البحر المحيط): «ثم ذكر الفريقين وما أعدّ لهما من العقاب والثواب. وبدأ بالكفار لمجاورة

(١) روح المعاني ٢٢/١٦٨.

قوله: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ﴾، فأتبع خبر الكافر بحاله في الآخرة»[(١)].

فذكر أن الذين كفروا لهم عذاب شديد «بسبب كفرهم وإجابتهم لدعوة الشيطان واتباعهم لخطواته»[(٢)].

وإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات «لهم مغفرة عظيمة وأجر كبير لا غاية لهما بسبب ما ذكر من الإيمان والعمل الصالح»[(٣)].

قد تقول: لقد قال في سورة الحديد: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧].

فذكر الأجر الكبير ولم يذكر المغفرة كما في آية فاطر، فما الفرق؟

فنقول: إن ذلك لأكثر من سبب:

من ذلك أنه قال في آية فاطر: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فذكر العمل الصالح إضافة إلى الإيمان.

وقال في آية الحديد: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ﴾ فذكر الإنفاق.

ومعلوم أن العمل الصالح أعمّ من الإنفاق، وأن الإنفاق إنما هو من العمل الصالح. فلما ذكر العمل الصالح في آية فاطر ذكر المغفرة، فلما زادوا في العمل الصالح زاد لهم المغفرة.

هذا من ناحية.

ومن ناحيةٍ أخرى أنه ذكر في آية فاطر الذين كفروا فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ومن المعلوم أن الله لا يغفر للكافرين الذين يموتون وهم كفار، بخلاف المؤمنين الذين يعملون الصالحات، فناسب ذكر المغفرة للذين آمنوا وعملوا الصالحات.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٠٠.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ١٦٨.

(٣) روح المعاني ٢٢/ ١٦٨.

ثم إنه من الملاحظ في القرآن الكريم أن كل ما ذكرت فيه المغفرة مع الأجر الكبير إنما هو في سياق ذكر الذنوب والكافرين ، وذلك يناسب ذكر المغفرة للذين آمنوا وعملوا الصالحات(١) .

فناسب كل تعبير موضعه والله أعلم .

* * *

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [فاطر : ٨] .

ذكر الذي زُيّن له سوء عمله مناسبة لذكر الشيطان في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ ﴾ ، والشيطان مما يزيّن لبني آدم سوء العمل. قال تعالى : ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [النحل : ٦٣] .

وقال : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ [النمل : ٢٤] .

وقال : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ [العنكبوت : ٣٨] .

ومناسبة لذكر الذين كفروا في الآية السابقة ، وهم ممن زُيّن لهم سوء أعمالهم .

والخبر محذوف ، والمعنى ـ والله أعلم ـ: أفمن زُيّن له سوء عمله كمن هداه الله ، بدلالة قوله سبحانه : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ ﴾ .

---

(١) انظر كتابنا (على طريق التفسير البياني) ـ ج١ ـ تفسير سورة الحديد .

جاء في (الكشاف) في قوله: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ ﴾: «يعني: أفمن زين له سوء عمله من هذين الفريقين كمن لم يزين له. . . ومعنى تزيين العمل والإضلال واحد. . . أو أفمن زين له سوء عمله كمن هداه الله، فحذف لدلالة ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ ﴾»[1].

وقدم قوله: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ على ﴿ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾ مناسبة لتقديم الذين كفروا على الذين آمنوا، ومناسبة لذكر الشيطان وحزبه.

ونظير هذا التقديم قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴾ [الرعد: ٢٧].

فقدّم قوله: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ مناسبة لتقديم الذين كفروا، وذلك قوله: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ ﴾

وذكر بعدهم الذين هداهم الله بقوله: ﴿ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٧ - ٢٨].

في حين قدّم من كان على بينة من ربه وهو الذي هداه الله على من زُين له سوء عمله فأضله في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴾ [محمد: ١٤] لتقدم الذين آمنوا على الذين كفروا في الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴾ [محمد: ١٢][2].

ونحو هذا التقديم قوله تعالى في آل عمران: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٧١.

(٢) ينظر كتابنا (مراعاة المقام في التعبير القرآني) - صفحة ١١٥.

كَمَنْ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ١٦٢] فقدّم من اتبع رضوان الله مناسبة لتقدم المؤمنين، والكلام عليهم من الآية ١٥٢ ـ ١٧٦.

وقبل الآية ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

ونحوه قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨] فقدم الذين آمنوا لتقدم المؤمنين وذلك قوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ [السجدة: ١٥].

في حين قدّم الذي يلقى في النار في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ . . .﴾ [فصلت: ٤٠] وذلك لتقدم الذين يلحدون في آياته في الآية.

وبنى الفعل (زيّن) للمجهول لذكر السوء، فإنه سبحانه لا ينسب السوء إلى نفسه، ولا تجد في القرآن (زينّا لهم سوء أعمالهم) بذكر السوء تنزيهًا له سبحانه عن السوء.

وقد ذكرنا ذلك مفصلاً في كتابنا (معاني النحو) في باب نائب الفاعل[١].

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾

الحسرة أشد الندم[٢]، والحسرة: التلهف والتأسف[٣]. والحسرة:

---

(١) معاني النحو ٢/ ٨٩ وما بعدها.
(٢) لسان العرب (حسر).
(٣) المصباح المنير (حسر).

همّ النفس على فوات أمر[١].

«والحسرات جمع حسرة، وهي الغم على ما فاته والندم عليه»[٢].

وقوله: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ أي: لا تهلك نفسك عليهم حسرات.

والمعنى العام: لا تتحسرْ عليهم، غير أنه لم يقل: (لا تتحسرْ عليهم) بل قال: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾)، والفرق كبير بين المعنيين، فإن معنى (لا تتحسرْ): لا تأسفْ ولا تندمْ.

وأما (لا تذهب نفسك عليهم حسرات) فمعناه: لا تهلك نفسك عليهم حسرات حسرة بعد حسرة، وذلك يدل على عظيم حرصه ﷺ والتلهف على هداهم، وعلى ما في نفسه من عظيم الحسرة والندم عليهم.

وقوله: (حسرات) يمكن إعرابها مفعولاً له، أي: من الحسرة عليهم، كقوله: (مات همًّا وهلك حزنًا).

ويصح إعرابها حالاً كقولهم: (مات مهمومًا). وجيء بالمصدر ولم يأت باسم الفاعل (متحسرًا) أو (متحسرة) للدلالة على المبالغة، أي: صارت كلها حسرات[٣]، وليجمع بين المعنيين: المفعول لأجله والحال. جاء في (الكشاف): «(حسرات): مفعول له، يعني: فلا تهلك نفسك للحسرات، و(عليهم) صلة تذهب، كما تقول: هلك عليه حبًّا، ومات عليه حزنًا. . . ويجوز أن يكون حالاً كأنّ كلها صارت حسرات لفرط التحسّر»[٤].

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٠١.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ١٧٠.

(٣) انظر كتابنا (معاني النحو) ـ وقوع المصدر حالاً ٢/ ٣٤٥ وما بعدها.

(٤) الكشاف ٢/ ٥٧١.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ .

وهو «وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم» (١) .

وقال: ﴿ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ ولم يقل: (بما يعملون) ليدل على أنهم كانوا يجتهدون في عمل السوء ويُحْكمونه ، فإن الصنع هو إجادة العمل «فإنه يقال للحاذق المجيد: صَنَع ، وللحاذقة المجيدة: صَناع» (٢) .

فليس كل عمل صنعًا ، وإنما الصنع هو حذق العمل وإجادته ، وإن هؤلاء عملوا السوء وحذقوا فيه حتى كان لهم صنعة ، وحتى زُيّن لهم سوء عملهم فرأوه حسنًا .

فكان من المناسب أن يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ .

* * *

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩] .

«لما ذكر أشياء من الأمور السماوية وإرسال الملائكة ذكر أشياء من الأمور الأرضية: الرياح وإرسالها ، وفي هذا احتجاج على منكري البعث دلّهم على المثال الذي يعاينونه وهو وإحياء الموتى سيّان» (٣) .

وجاء بالفعل (أرسل) ماضيًا وبـ (تثير) مضارعًا ، قيل: لأن الفعل (تثير) جاء لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورة الحدث ، كأنه مشاهد مرئي في وقت الإخبار .

جاء في (المغني): «إنهم يعبّرون عن الماضي والآتي كما يعبّرون عن

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٧١ .

(٢) المفردات في غريب القرآن (صنع) ، وانظر المصباح المنير (صنع) .

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٠٢ ، وانظر التفسير الكبير للرازي ٩/ ٢٢٥ .

الشيء الحاضر قصْدًا لإحضاره في الذهن ، حتى كأنه مُشاهد حالة الإخبار . . . ومثله ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ قصد بقوله سبحانه وتعالى (فتثير) إحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة» [١] .

وجاء في (الكشاف) في هذه الآية : «فإن قلت : لم جاء (فتثير) على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟ قلت : ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب ، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية . وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهمّ المخاطب أو غير ذلك» [٢] .

وقيل أيضًا : إن (أرسل) في الآية في معنى (يرسل) «ولذلك عطف عليه (فتثير)» [٣] .

وقيل : إن إثارة السحاب تكون بعد إرسال الرياح ، فتكونِ مستقبلاً بالنسبة إلى إرسال الرياح ، فجيء به مضارعًا فكان كل فعل مستعملاً في حقيقته . جاء في (روح المعاني) : «ولأن الإثارة خاصية للرياح وأثر لا ينفك في الغالب عنها ، فلا يوجد إلا بعد إيجادها ، فيكون مستقبلاً بالنسبة إلى الإرسال ، وعلى هذا يكون استعمال المضارع على ظاهره وحقيقته من غير تأويل ؛ لأن المعتبر زمان الحكم لا زمان التكلم . والفاء دالة على عدم تراخي ذلك وهو شيء آخر .

وجوز أن يكون الإتيان بما يدل على الماضي ، ثم بما يدل على المستقبل ، إشارة إلى استمرار الأمر وأنه لا يختص بزمان دون زمان ، إذ

---

(١) مغني اللبيب ٢/ ٦٩٠ ، وانظر كتابنا (معاني النحو) ج٣ ص٣٩٧ وما بعدها .

(٢) الكشاف ٢/ ٥٧١ .

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٠٢ .

لا يصح المضي والاستقبال في شيء واحد إلا إذا قصد ذلك»[١].

وقد يقال: لقد قال سبحانه في سورة الروم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم: ٤٨].

فقال: ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ بصيغة المضارع.

وقال في آية فاطر: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالفعل الماضي، فما الفرق؟

والجواب ـ والله أعلم ـ أن آية فاطر في الاستدلال على إحياء الموتى بما هو واقع وبما حدث من إحياء الأرض بعد موتها، وذلك أن السياق في تكذيب الرسل وما جاؤوا به. قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٤ ـ ٥].

فناسب الاستدلال بما وقع وما هو واقع، فجاء بالفعل (أرسل) ماضيًا.

وأما آية الروم فالكلام فيها على نعم الله سبحانه، وما يحصل منها على وجه الاستمرار. ومن ذلك قوله تعالى قبل الآية: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦].

ومن المعلوم أن قوله سبحانه: ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ استقبال، فإن (أنْ) تفيد الاستقبال.

فناسب أن يذكر ذلك بصيغة المضارع، للدلالة على الاستمرار والتجدد والله أعلم.

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ١٧١.

وجاء في (التحرير والتنوير): «ولم يؤت بفعل الإرسال في هذه الآية بصيغة المضارع ، بخلاف قوله في سورة الروم ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ ﴾ الآية ؛ لأن القصد هنا استدلال بما هو واقع إظهارًا لإمكان نظيره .

وأما آية سورة الروم فالمقصود منها الاستدلال على تجديد صنع الله ونعمه» (١) .

﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾

(السحاب) من السحب ، وهو جرّك الشيء على وجه الأرض ، وسحب بمعنى جرّ «والسحابة الغيم والسحابة التي يكون عنها المطر ، سُميت بذلك لانسحابها في الهواء» (٢) .

ولذا لم يرد السحاب في القرآن إلا مع الدلالة على الحركة ونحوها كالإثارة والسَّوْق والمَرّ ونحو ذلك .

قال تعالى : ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَـٰلِهِۦ ﴾ [النور : ٤٣] .

وقال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشۡرًۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ ﴾ [الأعراف : ٥٧] .

وقال : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبۡسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ ﴾ [الروم : ٤٨] .

وقال : ﴿ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

---

(١) التحرير والتنوير ٩/ ٢٦٨ .
(٢) لسان العرب (سحب) .

وقال: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل: ٨٨].

وغير ذلك.

وقد تقول: قد يستعمل القرآن الكريم السماء بمعنى السحاب، فيذكر سبحانه أنه ينزل من السماء ماء، كقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾ [الأنفال: ١١].

فما الفرق؟

والجواب أنه ليس استعمال السماء بهذا المعنى كالسحاب، فإنه لا يحسن إبدال السحاب بالسماء في كثير من المواطن، فلا يصح في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ . . . ﴾ أن يقال: (يزجي سماء) فإن (يزجي) بمعنى (يسوق)، ولا في قوله: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ أن يقال: (تمر مر السماء).

ونحو ذلك مما أوردناه من الآيات الكريمة.

وأما السماء فلها استعمالات عديدة في القرآن الكريم ومعان كثيرة، وذلك كالسماء التي تقابل الأرض، والسماء: الجو، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [الروم: ٤٨].

وقوله: ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

والسماء: السحاب، كقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ [البقرة: ٢٢] غير أنه ليست السماء في نحو هذا الاستعمال فيها معنى الحركة كالسحاب.

ومن معاني السماء: سقف البيت، وسماء كل شيء: أعلاه، وغير ذلك[(١)].

﴿ فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ ﴾

خرج من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم المعظّم نفسه فقال أولاً: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ ثم قال: (فسقناه) و(فأحيينا) للدلالة على تعظيم هذا الأمر، والدلالة على القدرة الباهرة، وليدل على أن المتكلم هو الله وليس غيره، وهذا من الالتفات. جاء في (الكشاف): «وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها، لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل: فسقنا، وأحيينا، معدولاً بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدلّ عليه»[(٢)].

وجاء بالفاء الدالّة على الترتيب والتعقيب ليدلّ على عظمة هذه القدرة وكمالها، فإنه أحيا الأرض بعد موتها من دون تراخٍ ولا مهلة.

وقال: ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ ﴾ ولم يقل: (من بعد موتها) لأنه قال: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾، والنشور لا يعقب الموت، بل يكون بعده بمدة طويلة، فإن (من) لابتداء الغاية، فلو قال: (من بعد موتها) لكان المعنى أن النشور يعقب الموت مباشرة، ألا ترى كيف قال سبحانه في بني إسرائيل: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ [البقرة: ٥٥ـ٥٧].

فقال: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ ولم يقل: (بعد موتكم)، لأن

(١) لسان العرب (سمو).

(٢) الكشاف ٢/ ٥٧٢.

موتهم لم يدم مدة طويلة كبقية الأموات ، وإنما بعثهم بعده بمدة قصيرة .

ونحو ما جاء في فاطر قوله تعالى في سورة الروم: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩].

فقال: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾ ثم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي: في المحشر يوم القيامة .

ولم يرد في القرآن الكريم (من بعد موتها) متبوعًا بذكر ما يدل على القيامة ، بل متبوعًا بأمر آخر ، وذلك كقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

ولا يفهم من قولنا أن كل ما يرد بعد قوله تعالى: (بعد موتها) يكون متبوعًا بذكر يوم القيامة ، بل إنما يكون التعقيب بحسب السياق .

﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾

النشور هنا إحياء الموتى في يوم الحساب[١] .

وكلمة النشور هنا مناسبة لذكر الرياح ، فإن من معاني النشور: الرياح[٢] . فناسب ذكره ذكرها. وجاء في (التفسير الكبير) للرازي: «﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ ما وجه التشبيه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾؟ فيه وجوه:

أحدها: أن الأرض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة بها كذلك الأعضاء تقبل الحياة.

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ١٧١ .

(٢) انظر لسان العرب (نشر).



وثانيها: كما أن الريح يجمع القطع السحابية كذلك يجمع بين أجزاء الأعضاء وأبعاض الأشياء.

وثالثها: كما أنا نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت نسوق الروح والحياة إلى البدن الميت»[1].

وقد يقال: لقد قال سبحانه وتعالى في سورة الزخرف: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١].

فما الفرق بينها وبين آية فاطر هذه، أعني قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]؟

والجواب أن ما ورد في آية فاطر أعمُّ مما ورد في آية الزخرف.

١ ـ فقد قال في آية الزخرف: ﴿مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ فذكر أنه بقدر.

وقال في فاطر: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ ولم يخصصه بقدر أو بشيء، فما ورد في آية فاطر أعمّ.

٢ ـ وقال في الزخرف: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ﴾

وقال في فاطر: ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾

وما في فاطر أعمّ من جهتين:

فقد قال في الزخرف: (بلدة).

وقال في فاطر: (بلد).

والبلد أعمّ من البلدة، فإن البلدة جزء من البلد. جاء في (لسان العرب): «البلد كل موضع مستحيز من الأَرض... والطائفة منها

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ٢٢٥.

بلدة. . . قال بعضهم: البلد جنسُ المكان كالعراق والشام ، والبَلدةُ الجزءُ المخصصُ منه كالبصرة ودمَشق. والبلدُ مكةُ تفخيمًا لها كالنجم للثريا والعود للمندَل» [١].

ومن جهة أخرى أنه قال في الزخرف: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ بسكون الياء.

وقال في فاطر: ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ بالتشديد. والميّت بالتشديد أعم من المَيْت بالسكون. فإن الميّت يقال لمن مات ولمن لم يمت.

وأما المَيْت فيقال لمن مات. فالميّت أعم. جاء في (لسان العرب): «وقيل: المَيْت الذي ماتَ ، والمَيِّتُ والمائِتُ الذي لم يمت بعد. . . وإنما مَيِّتٌ يصلح لِما قد ماتَ ولما سيموت ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]» [٢].

وجاء في (القاموس المحيط): «المَيْتُ - مخففة - الذي ماتَ ، والمَيِّتُ والمائِتُ الذي لم يمت بعد» [٣].

غير أنه قصد في آية فاطر الموت الواقع ، وذلك أنه قال: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

غير أن التعبير بـ(ميّت) أعم من حيث اللغة.

٣ - قال في الزخرف: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ فذكر البلدة.

وقال في فاطر: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فذكر الأرض.

والأرض أعم من البلدة.

٤ - قال في الزخرف: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

---

(١) لسان العرب (بلد) ، وانظر تاج العروس (بلد).

(٢) لسان العرب (موت).

(٣) القاموس المحيط (مات).

وقال في فاطر: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾

وما في فاطر أعمّ ؛ ذلك أنه في الزخرف قال: (تخرجون) والكلام للمخاطبين.

في حين قال في فاطر: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ ولم يخصصه بمخاطب أو غيره.

ثم إن كل تعبير مناسب للسياق الذي ورد فيه. فإن السياق في فاطر يدل على العموم، بخلاف ما في الزخرف الذي يدل على الخصوص.

ذلك أنه قال في فاطر: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [فاطر: ٤] فذكر أن الأمور ترجع إلى الله، ولم يذكر ماذا فعل بالمكذبين.

في حين ذكر في الزخرف أنه أهلك من هم أشدُّ بطشًا، فقال: ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الزخرف: ٨].

وما في فاطر أعمّ ؛ فإنه لم يذكر شيئًا معينًا.

وقال في فاطر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ . . . ﴾.

فخاطب الناس على العموم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾

وقال في الزخرف: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ [الزخرف: ٥].

وقال: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الزخرف: ٧].

فخاطب المسرفين وذكر المستهزئين.

والناس أعمّ.

فناسب كل تعبير السياق الذي ورد فيه والله أعلم .

* * *

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر : ١٠] .

العزة : الرفعة والامتناع والقوة والشدة والغلبة(١) .

فأخبر سبحانه أن الذي يريد العزة فليطلبها من صاحبها ومالكها وهو الله ، ولا يطلبها من جهة أخرى فلله العزة كلها .

وقال : (مَن كَانَ يُرِيدُ) فأدخل (كان) على الفعل المضارع للدلالة على الاستمرار ، أي : من كان يريد العزة مداومًا على إرادتها ، كما تقول : (كان يفعل) أي : مداومًا على الفعل ، وكقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾ [مريم : ٥٥] أي : مستمرًّا على ذلك(٢) .

وقوله : ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ ﴾ أي : هي لله خاصة . وقدّم الجار والمجرور (لله) للدلالة على الاختصاص .

و(جميعًا) حال مؤكدة ، أي : العزة كلها لله وحده وهو ربُّها ، كما قال سبحانه : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات : ١٨٠] . جاء في (روح المعاني) : «﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ ﴾ الشرف والمنعة . . . والآية في الكافرين كانوا يتعززون بالأصنام ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴾ . . . والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة قلوبهم كانوا يتعززون بالمشركين ، كما قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ

---

(١) لسان العرب (عزز) .

(٢) انظر كتابنا (معاني النحو ـ كان واستعمالاتها) ١/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .

أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ ومن : اسم شرط ، وما بعده فعل الشرط ، والجمع بين (كان) و(يريد) للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها . . .

﴿ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ . . .

والتقدير : من كان يريد العزة فليطلبها من الله تعالى ، فلله وحده لا لغيره العزة ، فهو سبحانه يتصرف فيها كما يريد . . .

وتعريف العزة للاستغراق بقرينة (جميعًا) وانتصابه على الحال ، والمراد عزة الدنيا والآخرة .

وتقديم الخبر على المبتدأ للاختصاص»[1] .

والملاحظ أن جوَّ السورة تسود فيه الدلالة على العزة ، وأنها خاصة بالله سبحانه .

فمن ذلك قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والقدير على كل شيء له العزة جميعًا .

وقوله سبحانه : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر : ٢] فالذي بيده فتح الرحمة للناس والإمساك هو العزيز الحكيم ، وأنه صاحب العزة كلها . وختم الآية بقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فهو العزيز لا عزيز غيره ، وهو الحاكم وصاحب الحكمة .

وقوله سبحانه : ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ [فاطر : ٣] فهو الله لا خالق غيره ، وهو الرازق لا رازق سواه ، وهو الإله لا إله غيره ، فهو العزيز الذي له العزة جميعًا .

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ١٧٣ ، وانظر الكشاف ٢/ ٥٧٢ ، البحر المحيط ٧/ ٣٠٣ .

وقوله: ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ [فاطر: ٤] فالأمور ترجع إليه لا إلى غيره ، فهل لغيره من عزة؟

وقوله: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

فالله ربنا له الملك وحده سبحانه ، وكل من سواه ما يملكون من قطمير ، فهل يكون لغيره شيء من العزة؟

وقوله: ﴿ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ [فاطر: ١٥ـ١٧].

أفليس صاحب هذا الوصف له العزة جميعًا؟ وهل تكون عزة لغيره إلا إذا أراد هو أن يعزَّه.

وغير ذلك وغيره.

وقد تقول: ولكنه قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] فجعل العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، ولم يجعلها لله وحده ، مع أنه قدّم الجار والمجرور ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ﴾ فما الفرق؟

والجواب ؛ أن هذه الآية ردّ على قول المنافقين الذين ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ ﴾ يعنون بالأعزّ أنفسهم ، وبالأذلّ رسولَ الله ﷺ.

وقائل هذا القول عبد الله بن أُبيّ بن سلول رأس المنافقين «وعنى بالأعزّ نفسَه ومن معه ، وبالأذلِّ رسولَ الله ﷺ ومن معه» [(١)].

(١) فتح القدير ٥/ ٢٢٥ ، وانظر روح المعاني ٢٨/ ١٢٩.

فقال الله سبحانه: إن العزة لله ولمن يعزه الله وهو رسوله ومن يتبعه وليست لغيرهم، وهي خاصة بهم، فإنه سبحانه رب العزة، وهو مالك الملك يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء، كما قال سبحانه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

ولذا لم يقل في هذه الآية: (إن العزة لله جميعًا) كما قال في آية فاطر، وذلك أنه قال: إن له العزة ولرسوله وللمؤمنين فلا يناسب ذكر (جميعًا) في هذا المقام.

جاء في (روح المعاني): «ولا ينافي ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن ما لله تعالى وحده العزة بالذات، وما للرسول ﷺ العزة بواسطة قربه من الله تعالى، وما للمؤمنين العزة بواسطة الرسول عليه الصلاة والسلام، وكأنه للإشارة إلى ذلك أعيد الجارّ» (١).

وجاء في (الكشاف): «فبيّن أن لا عزة إلاّ لله ولأوليائه. وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ والمعنى: فليطلبها عند الله... لأن الشيء لا يطلب إلا عند صاحبه ومالكه... ثم عرّف أن ما تطلب به العزة هو الإيمان والعمل الصالح بقوله: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾» (٢).

وقد ذكر سبحانه أن العزة لله جميعًا في موطنين آخرين، وهما قوله سبحانه في سورة النساء: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩] وهم المنافقون، قال

---

(١) روح المعاني ٢٨/ ١٧٣.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٧٢.

تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ . . . ﴾ الآية. فالمنافقون يتخذون الكافرين أولياء يتعززون بهم دون المؤمنين، فقال الله: إن العزة لله جميعًا، وليست لهؤلاء الكفرة، ولا لأحد غيره؛ إلا من أعزه الله سبحانه.

والموطن الآخر قوله سبحانه في سورة يونس: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يونس: ٦٥].

فقد نهى الله رسوله عن الحزن لما يقوله الكفار فيه وفي دينه من الطعن عليه وعلى دينه، فقد قال الكافرون: إنه ساحر وإنه كذاب، وقد ذكر في السورة طرفًا من أقوالهم فيه وفي دينه، فقد قالوا فيه: إنه ساحر مبين: ﴿ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس: ٢].

وقالوا: إنه افترى القرآن: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [يونس: ٣٨].

وقالوا: هو كذاب، قال تعالى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ ﴾ [يونس: ٤١].

وطعنوا في دينه: ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ ﴾ [يونس: ٦٨].

وغير ذلك من أقوالهم فيه وفي دينه فقال له ربه: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ ﴾ فإنه ربك يعزُّك ويذلُّهم.

وختم الآية بقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ لمّا ذكر القول فإن القول مما يُسمَع ويُعلَم فإن ربك يسمع قولهم، وهو العليم بكل شيء، كما قال سبحانه في السورة: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١].



فناسب أن يختم الآية بقوله: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لما ذكر القول فيها دون آية النساء التي لم يذكر فيها ذلك. وكل تعبير مناسبٌ موضعَه الذي ورد فيه.

جاء في (فتح القدير): «قوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ نهي للنبي ﷺ عن الحزن من قول الكفار المتضمن للطعن عليه وتكذيبه والقدح في دينه. والمقصود التسلية له والتبشير...

﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: الغلبة والقهر له في مملكته وسلطانه ليست لأحد من عباده، وإذا كان ذلك كله له، فكيف يقدرون عليك حتى تحزن لأقوالهم الكاذبة وهم لا يملكون من الغلبة شيئًا»[1].

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾

خصّ بعضهم الكلم الطيب بـ (لا إله إلا الله).

وقيل: هو ذكر الله.

وقيل: هو كل كلام هو ذكر الله أو هو لله سبحانه كالنصيحة والعلم.

وتقديم الجار والمجرور (إليه) لإفادة الحصر.

وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ كناية عن القبول[2].

﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾.

قيل: أي إن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب.

وقيل: إن الكلم الطيب يرفع العمل الصالح.

---

(١) فتح القدير ٢/ ٤٣٨.

(٢) انظر روح المعاني ٢٢/ ١٧٤، الكشاف ٢/ ٥٧٢، البحر المحيط ٧/ ٣٠٣، تفسير الرازي ٩/ ٢٢٦.

وقيل: إن الله سبحانه يرفع العمل الصالح ويقبله، وذلك بحسب تقدير الفاعل وعائديته، فإن التعبير يحتمل المعاني كلها، ولعل ذلك بقصد الاهتمام بها كلها: بالكلم الطيب، وبالعمل الصالح، وإخلاص النية لله، والعمل الصالح لله سبحانه.

جاء في (روح المعاني): «واختلف في فاعل (يرفع) فقيل: ضمير يعود على العمل الصالح، وضمير النصب يعود على الكلم، أي: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب... وقيل: الفاعل ضمير يعود على الكلم الطيب، وضمير النصب يعود على العمل الصالح، أي: يرفع الكلم الطيب العمل الصالح... وقيل: الفاعل ضميره تعالى، وضمير النصب يعود على العمل... أي: والعمل الصالح يرفعه الله تعالى ويقبله»(١).

﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾

المكر: احتيال في خفية.

وقيل: المكر: الخديعة والاحتيال(٢).

وجاء في (التحرير والتنوير): «المكر: تدبيرُ إلحاق الضرِّ بالغير في خفية لئلا يأخذ حذره، وفعله قاصر»(٣).

ومعنى (الذين يمكرون السيئات) أي: يمكرون المكرات السيئات، فالسيئات صفة للمصدر المحذوف، وهي مفعول مطلق وليست مفعولاً به؛ لأن (مكر) فعل لازم.

جاء في (الكشاف): «﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فإن قلت: (مكر) فعل

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ١٧٤ ـ ١٧٥، وانظر الكشاف ٢/ ٥٧٢، البحر المحيط ٧/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤، تفسير الرازي ٩/ ٢٢٦.

(٢) لسان العرب (مكر).

(٣) التحرير والتنوير ٩/ ٢٧٤.

غير متعدّ ، لا يقال : (مكر فلان عمله) فبم نصب (السيئات)؟

قلت : هذه صفة للمصدر ، أو لما في حكمه ، كقوله تعالى : ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر : ٤٣] أصله : والذين مكروا المكرات السيئات ، أو أصناف المكر السيئات» [١] .

وجاء في (روح المعاني) : «﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي : المكرات السيئات أو أصناف المكرات السيئات ، على أن (السيئات) صفة لمحذوف وليس مفعولاً به ليمكرون ، لأن (مكر) لازم .

وجوز أن يكون مفعولاً على تضمين يقصدون أو يكسبون . وعلى الأول فيه مبالغة للوعيد الشديد على قصد المكر ، أو هو إشارة إلى عدم تأثير مكرهم» [٢] .

وفي هذا تهديد شديد ووعيد عظيم بالعذاب الشديد للمكر والتدبير قبل الفعل ، فما بالك بالفعل؟

فقد تكون العقوبة على المكر قبل الفعل ، وذلك كما في عاقبة الرهط في قوم صالح الذين تقاسموا بالله ليبيتنه وأهله ، فدمرهم ربنا سبحانه قبل الفعل وأنجى الذين آمنوا كما قال سبحانه : ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [النمل : ٥٠ ـ ٥٣] .

﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾

«ووضع اسم الإشارة موضع ضميرهم في قوله سبحانه : ﴿وَمَكْرُ

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٧٢ .

(٢) روح المعاني ٢٢/ ١٧٦ .

أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للإيذان بكمال تميزهم بما هم عليه من الشر والفساد عن سائر المفسدين واشتهارهم بذلك ، وما فيه من معنى البعد للتنبيه على ترامي أمرهم في الطغيان وبعد منزلتهم في العدوان» (١) .

﴿هُوَ يَبُورُ﴾ أي : يفسد ويهلك ، وهو إشارة إلى فنائه(٢) .

«وتقديم الضمير للتقوي أو الاختصاص . أي : مكرهم هو يفسد خاصة لا مكرنا بهم» (٣) .

والملاحظ في الآية سمة التقديم للاختصاص ، وذلك في قوله سبحانه : ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ﴾ بتقديم الجار والمجرور .

وقوله : ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ بتقديم الجار والمجرور .

وقوله : ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ بتقديم العمل الصالح .

وقوله : ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾ بتقديم الجار والمجرور .

وقوله : ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ بتقديم الضمير (هو) .

* * *

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [فاطر : ١١] .

في الآية الكريمة إشارة إلى أمرين : القدرة والعلم . فمن مظاهر القدرة في الآية قوله : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ﴾ .

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ١٧٦ .

(٢) روح المعاني ٢٢/ ١٧٦ ، الكشاف ٢/ ٥٧٢ ، البحر المحيط ٧/ ٣٠٤ ، تفسير الرازي ٩/ ٢٢٧ .

(٣) روح المعاني ٢٢/ ١٧٦ .

ومن الإشارة إلى العلم قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إشارة إلى الأمرين: القدرة والعلم.

وفي السورة ذكر للقدرة والعلم في أكثر من موضع:

من ذلك ـ كما ذكرنا ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [فاطر: ٣٨].

ومن الملاحظ أنه قال تعالى في الآية: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ...﴾ من غير توكيد.

وقال في سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ...﴾ [الحج: ٥].

فأكّد الخلق بـ(إنّ) فقال: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾؛ ذلك أنه قال في آية الحج: ﴿إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾، فلما ذكر الريب ناسب أن يؤكّد ويفصّل.

وختم آية الحج بإحياء الأرض بعد موتها فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

ثم عقب ذلك بإحياء الموتى ومجيء الساعة فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٦ ـ ٧] مناسبة لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾، وليست آية فاطر كذلك.

ومن الواضح في القرآن الكريم أن الآيات تذكر بحسب ما يناسب

المقام والسياق والغرض منها.

ومن ذلك آيات خلق الإنسان، فإنه يذكر فيها ما يناسب المقام الذي وردت فيه. ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى في سورة النحل: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٤].

فذكر أنه خلقه من نطفة فإذا هو مخاصم ربه بالشرك، فقد جعل له شركاء سبحانه. قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١]، وقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣] والشرك خصومة للخالق سبحانه.

ومن ذلك قوله سبحانه في سورة الإنسان: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢] فذكر أنه خلقه من نطفة أمشاج، أي: مختلطة.

ثم قال: (نبتليه) أي: نختبره.

ثم قال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ والسمع والبصر إنما هما آلتا الابتلاء. فالذي لا يسمع ولا يبصر كيف يبتلى؟

ثم قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] فالهداية تكون لمن يسمع ويبصر.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧ ـ ٢٣].

فإنه لم يفض في تطور خلق الإنسان، وإنما أراد بيان كفر الإنسان مع أن ربه خلقه من نطفة وهداه السبيل، ولم يقض ما أمره به ربه.

والآية ـ أعني آية فاطر ـ دليل على البعث أيضًا، وقد سبق ذكر إحياء

الأرض بعد موتها بالماء الذي يأتي به السحاب في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾) [فاطر: ٩].

فكما أحيا الأرض بعد موتها خلق الناس من تراب ثم أحياهم فجعلهم أزواجًا.

جاء في (روح المعاني): «﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ دليل آخر على صحة البعث والنشور، أي: خلقكم ابتداءً منه... ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ أي: ثم خلقكم منها خلقًا تفصيليًّا» (١).

﴿ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ﴾

ومن معاني الأزواج: الأصناف، ومن ذلك قوله تعالى في أصناف الناس يوم القيامة: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾ [الواقعة: ٧] أي: أصنافًا ثلاثة: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ٨-١٢].

وقوله في أصحاب النار: ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٧-٥٨] أي: أصناف.

جاء في (الكشاف): (أزواجًا) أصنافًا، أو ذكرانًا وإناثًا، كقوله تعالى: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾» (٢).

وجاء في (روح المعاني): «﴿ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ﴾ أي: أصنافًا ذكرانًا وإناثًا... [وقيل]: إنه قال قدّر بينكم الزوجية وزوّج بعضكم بعضًا» (٣).

(١) روح المعاني ٢٢/ ١٧٧.
(٢) الكشاف ٢/ ٥٧٣.
(٣) روح المعاني ٢٢/ ١٧٧.

ومن لطيف التناسب أنه ذكر الأزواج في خلق الإنسان ، ومن معانيه الأصناف ـ كما ذكرنا ـ ، وذكر طرفًا من الأصناف في السورة .

فمن ذلك ما ذكره في الآية : المعمَّر والمنقوص من عمره .

ومن ذلك ما ذكر في الآية بعدها (البحران) أحدهما عذب فرات ، والآخر ملح أجاج ، وهما صنفان مختلفان .

والأكل واللبس . قال تعالى : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ .

ومن ذلك الليل والنهار في قوله : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ [١٣] .

والشمس والقمر : ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ [١٣] .

والأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، والظل والحرور ، والأحياء والأموات ، والبشير والنذير [٢٤] ، والجُدَد البيض والحمر المختلف ألوانها ، والسود .

ومن ذلك الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات بإذن الله .

وغير ذلك وغيره من الأصناف .

وهو تناسب لطيف .

ثم قال : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ ﴾ فجاء بـ(من) الاستغراقية للدلالة على أنه لا يندّ عن علمه شيء ، وقد دوّن ذلك وكتبه قبل حصوله . وهذا يدلّ على كمال العلم .

ثم قال : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ فقدّم الجار والمجرور (على الله)

للحصر ليدل على أنه يسيرٌ عليه وحده وليس على غيره. فذكر في الآية كمال العلم وكمال القدرة لله ، وأنه حُصر فيه سبحانه.

* * *

﴿وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

نفى الاستواء بين البحرين: الملح والعذب.

وظاهرٌ أن نفي الاستواء بين الأمرين أو الأمور مكرر في السورة في أكثر من موضع ، وذلك نحو قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۝٢٠ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَآءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ١٩ـ٢٢].

ونفى الاستواء ههنا بـ(ما) ، وقد ينفيه بـ (لا) وذلك نحو قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنۢ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد: ١٠].

وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ [فصلت: ٣٤].

وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقوله: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

ويبدو ـ والله أعلم ـ أنه ينفي الاستواء بـ (ما) في الحقائق والثوابت والمسلّمات من الأمور، كما ذكر في نفي الاستواء بين الأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور، والأحياء والأموات.

مما يقرّ به ويسلّم به كل أحد. و(ما) إذا دخلت على الفعل المضارع تكون لنفي الحال كثيرًا، وقد تكون لغيره[١].

وينفي الاستواء بـ (لا) في الأعمال ونحوها وما يتعلق بها وعاقبتها في الآخرة.

ولعل ذلك لأن (لا) كثيرًا ما ينفى بها في الاستقبال إذا دخلت على الفعل المضارع. بل يرى عموم النحاة أنها إذا دخلت على الفعل المضارع خلصته للاستقبال[٢].

والحق أن تكون له ولغيره.

وقد تقول: إن ذلك غير ظاهر في قوله سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ فإنه نفى بين صنفين من الناس.

فنقول: إن ذلك متعلق بالعمل أيضًا، فأصحاب النار من يعمل السيئات، وأصحاب الجنة من يعمل الصالحات. قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١ـ٨٢] وانظر يونس: ٢٧، والأعراف: ٤٢.

---

(١) انظر كتابنا (معاني النحو) ٤/ ٢٢٥ وما بعدها.

(٢) انظر كتاب سيبويه ١/ ٤٦٠، وانظر كتابنا (معاني النحو) ٤/ ٢٤٠ وما بعدها، وكتابنا (أسئلة بيانية في القرآن الكريم) ج٢/ ١٥٠ ـ ١٥١ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ...﴾.

ونحو ذلك قوله سبحانه : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة : ١٠٠] .

فقد يقول قائل : إن ذلك غير مختص بالعمل ، فإن الخبيث والطيّب عامّان .

فنقول : إنهما عامّان ويدخل فيهما العمل .

والذي يدلّ على أنهما في سياق العمل قوله سبحانه في الآية : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

والتقوى مما يتعلق بالعمل .

جاء في (البحر المحيط) : «والظاهر أن الخبيث والطيب عامّان ، فيندرج تحتهما حلال المال وحرامه ، وصالح العمل وفاسده ، وجيد الناس ورديئهم ، وصحيح العقائد وفاسدها» (١) .

وكلامنا المارّ في نفي الاستواء في التعبير القرآني ، وليس في عموم النفي .

﴿ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾

الفرات أشد الماء عذوبة (٢) .

والملح خلاف العذب من الماء ، ولا يقال فيه مالح في اللغة الفصحى . وفرقوا بين الماء الملح والماء المالح أن «الملح الماء الذي فيه الطعم المعروف من أصل الخلقة كماء البحر ، والمالح الماء الذي وضع فيه ملح فتغير طعمه ولا يقال فيه إلا مالح» (٣) .

---

(١) البحر المحيط ٤/ ٢٧ ، وانظر الكشاف ١/ ٤٨٦ .

(٢) لسان العرب (فرت) .

(٣) روح المعاني ٢٢/ ١٧٩ ، التفسير الكبير ٩/ ٢٢٨ .

والأجاج: أي: الشديد الملوحة والمرارة، المحرق من ملوحته[١].

وفي (الكشاف): «ضرب البحرين العذب والمالح مثلين للمؤمن والكافر، ثم قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمته وعطائه ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ أي: ومن كل واحد منهما (تأكلون لحمًا طريًا) وهو السمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً﴾ وهي اللؤلؤ والمرجان»[٢].

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾

(مواخر): شواقّ للماء بجريها، يقال: مخرت السفينة الماء، أي: شقته، فالمخر: الشقّ[٣].

وقال: (ترى) للمخاطب المفرد مع أنه جمع المخاطبين قبلها فقال: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وبعدها فقال: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ «لأن الخطاب لكل أحد تتأتى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط»[٤].

ومن المناسب أن نذكر أنه قال سبحانه في سورة النحل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

١ ـ فبدأ الآية بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾

وبدأ آية فاطر بقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾

---

(١) انظر لسان العرب (أجج).

(٢) الكشاف ٢/ ٨٧٣.

(٣) ينظر الكشاف ٢/ ٥٧٣، روح المعاني ٢٢/ ١٨٠.

(٤) روح المعاني ٢٢/ ١٨٠.



٢ ـ وقال في آية النحل: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ بتقديم (مواخر) على الجار والمجرور (فيه).

وقال في آية فاطر: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ فقدّم (فيه) على (مواخر).

٣ ـ وقال في آية النحل: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالواو الداخلة على (لتبتغوا).

وقال في آية فاطر: ﴿لِتَبْتَغُوا۟﴾ من دون واو.

١ ـ أما بالنسبة إلى الأمر الأول، فقد ذكرنا سابقًا أن سورة فاطر كثيرًا ما تكرر فيها ذكر نفي الاستواء بين الأمرين أو الأمور، وذلك في سياق بيان القدرة والعلم كما ذكرنا.

ومن الملاحظ في سورة النحل أنه تكرر فيها ذكر التسخير، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ﴾ [النحل: ١٢].

وقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النحل: ٧٩].

وفي ذلك إشارة إلى النعم إضافة إلى القدرة، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ أي: سخره لهذا الأمر، واللام كما هو معلوم في (لتأكلوا) لام التعليل.

وكذلك قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ﴾ فقال: (سخر لكم).

٢ ـ وقال في آية فاطر: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ بتقديم الجار والمجرور (فيه) على (مواخر).

وقال في النحل: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ فقدم (المواخر) على (فيه).

ولعل من أسباب ذلك «أنه تقدم الكلام في النحل على وسائط النقل، فذكر الأنعام وأنها تحمل الأثقال، وذكر الخيل والبغال والحمير لنركبها وزينة، ثم ذكر الفلك وهي واسطة نقل أيضًا فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾.

فقدم المواخر لأنها من صفات الفلك، وهذا التقديم مناسب في سياق وسائط النقل.

وليس السياق كذلك في سورة فاطر، وإنما قال الله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾

ثم قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

فالكلام هنا على البحر وأنواعه وما أودع الله فيه من نعم. فلما كان الكلام على البحر قدم ضمير البحر على المخر فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾

فانظر كيف أنه لما كان الكلام على وسائط النقل والفلك قدم حالة الفلك، ولما كان الكلام على البحر ذكر ما يتعلق به»[1].

٣ ـ وأما ذكر الواو في آية النحل في قوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وعدم ذكرها في آية فاطر، فمن الظاهر أن آية النحل في سياق تعداد النعم،

---

(١) التعبير القرآني ٨٣ ـ ٨٤.

يدل على ذلك قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ ﴾ فالتسخير إشارة إلى النعم. ومعنى التسخير: تمكين الناس من الانتفاع[(١)]. ومن معاني التسخير: التذليل[(٢)].

ويدل على ذلك ما ذكر قبلها وبعدها من النعم. ثم قال: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل: ١٨] فجاء بالواو إشارة إلى أن نعمًا أخرى في تسخير البحر وليست محصورة بما ذكر من أكل اللحم واستخراج الحلية فقال: ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فعطف على (لتأكلوا) و(تستخرجوا) إشارة إلى تعدد النعم.

وليس السياق كذلك في آية فاطر، فإنه قال: ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فجعل مخر الفلك للابتغاء من فضله سبحانه.

ومن الظاهر أن جملة ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ في النحل جملة معترضة «بين التعليلين: تعليل الاستخراج، وتعليل الانتفاع، فلذلك عدل عن جمع المخاطب، والظاهر عطف (ولتبتغوا) على التعليل قبله»[(٣)].

جاء في (كشف المعاني في المتشابه من المثاني): «إن آية النحل سيقت لتعداد النعم على الخلق، بدليل تقديم قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ ﴾.

وآية فاطر سيقت لبيان القدرة والحكمة بدليل قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ الآية. فتكرر (منه) في النحل لتحقيق المنّة والنعمة، ولذلك عطف (ولتبتغوا) بالواو العاطفة لمناسبة تعدد النعم كما تقدم.

---

(١) انظر البحر المحيط ٥/ ٤٧٩.
(٢) لسان العرب (سخر).
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٨٠.

وقدم (مواخر) على (فيه) لأنه امتنّ عليهم بتسخير البحر ، فناسب تقديم (مواخر) أي: شاقة للماء. . .

وأما آية فاطر فحذف (منه) لدلالة (من كل تأكلون) عليها .

وقدم (فيه) على (مواخر) لأن شق الفلك الماء لجريانه فيه آية من آيات الله تعالى ، فالتقدم فيه أنسب للفلك» [(١)] .

* * *

﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [فاطر : ١٣] .

بعد أن ذكر آياته في أنفسهم وفي الأرض في قوله: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ . . . ﴾ ﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ . . . ﴾ ذكر قسمًا من آياته الكونية فذكر الليل والنهار والشمس والقمر .

وبدأ بالليل لأنه أسبق من النهار ، فإنه قبل خلق الشمس لم يكُ نهار . وقدم الشمس على القمر لأنها أقدم وأسبق من القمر[(٢)] .

وجاء بالفعل (يولج) مضارعًا ؛ لأن ذلك يتجدد في كل لحظة. وجاء بالفعل (سخر) ماضيًا ؛ لأن ذلك لا يتجدد تجدد الإيلاج[(٣)] .

جاء في (روح المعاني): «﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ بزيادة أحدهما ونقص الآخر بإضافة بعض أجزاء كل منهما إلى الآخر .

﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ عطف على (يولج) واختلافهما صيغة لما

---

(١) كشف المعاني في المتشابه من المثاني ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

(٢) على طريق التفسير البياني ٢/ ٤٩٣ .

(٣) على طريق التفسير البياني ٢/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤ ، وانظر التفسير الكبير ٩/ ١٣٠ .

أن إيلاج أحد الملوين في الآخر متجدد حيناً فحيناً .

وأما تسخير النيرين فأمر لا تعدد فيه ، وإنما المتعدد والمتجدد آثاره» (١) .

ويدل السياق على أنه سبحانه الخالق والقادر والعليم والمالك .

﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

قيل : هو يوم القيامة . وقيل : «جريانهما عبارة عن حركتيهما الخاصتين بهما ، والأجل المسمى عبارة عن مجموع مدة دورتيهما أو منتهاها وهي للشمس سنة وللقمر شهر» (٢) .

لقد قال سبحانه في هذه الآية وآيتين أخريين : ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ﴾ (٣) باللام .

وقال في سورة لقمان : ﴿كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان : ٢٩] فقال : (إلى) .

«والظاهر أن ما ورد باللام يفيد التعليل بمعنى : كل يجري لبلوغ الأجل . . . وأما ما جاء بـ(إلى) فهو يفيد الانتهاء» (٤) .

ومما ذكر في الفرق بينهما أن ما ورد في سورة لقمان في سياق آيات منبهة على النهاية والحشر والإعادة ، فقبلها قوله : ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان : ٢٨] .

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ١٨١ .
(٢) روح المعاني ٢٢/ ١٨١ ، وانظر فتح القدير ٤/ ٣٣٢ .
(٣) انظر : الرعد ٢ ، الزمر ٥ .
(٤) معاني النحو ٣/ ٧٤ .

وبعدها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾ [لقمان: ٣٣].

فناسب مجيء (إلى) الدالة على انتهاء الغاية ؛ لأن القيامة غاية جريان ذلك.

وما ورد في فاطر إنما هو في سياق ذكر النعم. ومن ذلك قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ . . .﴾ إلى قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فناسب المجيء باللام الدالة على العلة التي يقع الفعل من أجلها[1].

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ ﴾

بعد أن ذكر سبحانه عظيم قدرته ذكر عظيم ملكه، فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ﴾ فأشار باسم الإشارة (ذلكم) الدالّ على البعد للتعظيم، وقال: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ﴾ فقدم الجار والمجرور للحصر والاختصاص، فإن الملك له لا لغيره.

﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾

أما ما يدعون من دون الله وهي الأوثان فما يملكون شيئًا. و(القطمير): هي القشرة الرقيقة التي على النواة بين النواة والتمر[2].

وجاء بـ (من) الدالة على استغراق الجنس، فهم لا يملكون أيّ شيء ولو كان حقيرًا.

جاء في (التفسير الكبير) للرازي: «وههنا لطيفة وهي أن الله تعالى ذكر لنفسه نوعين من الأوصاف:

أحدهما: أن الخلق بالقدرة والإرادة.

---

(١) انظر درة التنزيل ٣٧٤ـ٣٧٥، كشف المعاني ٢٩٦ـ٢٩٧.

(٢) لسان العرب (قطمر).

والثاني: الملك. واستدل بهما على أنه إله معبود، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ ذكر الرب والملك ورتب عليهما كونه إلهًا، أي: معبودًا.

وذكر فيمن أشركوا به سلب صفة واحدة وهو عدم الملك بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ ولم يذكر سلب الوصف الآخر لوجهين:

أحدهما: أن كلهم كانوا معترفين بأن لا خالق لهم إلا الله...

وثانيهما: أنه يلزم من عدم الملك عدم الخلق؛ لأنه لو خلق شيئًا لملكه، فإذا لم يملك قطميرًا ما خلق قليلاً ولا كثيرًا»[1].

* * *

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

بعد أن ذكر عدم ملكهم شيئًا ولو كان حقيرًا؛ نفى عنهم السماع، سواء كان سماع صوت أم سماع الإجابة، فهم لا يسمعونكم لا سماع صوت ولا يستجيبون لكم بشيء، ويتبرؤون منكم، ويكفرون بشرككم، ويكونون لكم أعداء في أعسر الأوقات وأشدها وهو يوم القيامة. فهم لا ينفعونكم في الدنيا، وفي القيامة يكفرون بشرككم ويكونون لكم أعداء كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

فمن أضل من هؤلاء؟!

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ٢٢٨-٢٢٩.

جاء في (روح المعاني): «﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ ﴾ استئناف مقرر لما قبله ، كاشف عن جلية حال ما يدعونه بأنه جماد ليس من شأنه السماع . . .

﴿ وَلَوْ سَمِعُواْ ﴾ على سبيل الفرض والتقدير .

﴿ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ﴾ لأنهم لم يرزقوا قوة التكلم . . . ويجوز أن يراد بها الاستجابة بالفعل ، أي : ولو سمعوا ما نفعوكم لعجزهم عن الأفعال بالمرة» (١) .

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ .

جاء في (التفسير الكبير) للرازي : «لما بين عدم النفع فيهم في الدنيا بيّن عدم النفع منهم في الآخرة ، بل أشار إلى وجود الضرر منهم في الآخرة بقوله : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ أي : بإشراككم بالله شيئًا كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣]» (٢) .

﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ أي : «ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير عالم به . يريد أن الخبير بالأمر وحده هو الذي يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به» (٣) .

* * *

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [فاطر : ١٥ ـ ١٧] .

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ عرّف الفقراء بـ (أل) ولم يقل :

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ١٨٢ .
(٢) التفسير الكبير ٩/ ٢٢٩ .
(٣) الكشاف ٢/ ٥٧٤ .



(أنتم فقراء) ليدلّ على أنهم في الفقر التام ، وأنهم محتاجون إليه أشد الحاجة في كل شيء ، وأنه ليس عندهم شيء لولا هو. جاء في (روح المعاني): «وتعريف (الفقراء) للجنس أو للاستغراق. . . وعرف كذلك للمبالغة في فقرهم» [١].

﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾

عرّف (الغني) بأل ، وجاء بضمير الفصل (هو) ليدلّ على أنه هو الغنيّ وحده ولا غنيّ سواه ، وأن كل الخلق محتاجون إليه ، وأن الغنى مقصور عليه لا يشاركه فيه أحد.

وهو (الحميد) المحمود بما أنعم على خلقه ، فإن جميع النعم منه سبحانه ، فهو المحمود في كل شيء. جاء في (تفسير ابن كثير): «﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له ، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشرعه» [٢].

وجاء في (الكشاف): «ذكر الحميد ليدلّ به على أنه الغني النافع بغناه خلقه ، الجواد المنعم عليهم ، المستحق بإنعامه عليهم أن يحمدوه ، الحميد على ألسنة مؤمنيهم» [٣].

وجاء في (البحر المحيط): «هذه آية موعظة وتذكير ، وأن جميع الناس محتاجون إلى إحسان الله تعالى وإنعامه في جميع أحوالهم ، لا يستغني أحد عنه طرفة عين.

وهو الغني عن العالم على الإطلاق. وعرّف الفقراء ليريهم شديد افتقارهم إليه. . .

(١) روح المعاني ٢٢/ ١٨٣.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٥١.
(٣) الكشاف ٢/ ٥٧٤.

ووصف بالحميد دلالة على أنه جواد منعم ، فهو محمود على ما يسديه من النعم ، مستحق للحمد» [(١)] .

وجاء في (روح المعاني) : «﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ عن كل شيء لا غيره .

(الحميد) المنعم على جميع الموجودات المستحق بإنعامه سبحانه للحمد . وأصله (المحمود) وأريد به ذلك على طريق الكناية ليناسب ذكره بعد فقرهم ، إذ الغني لا ينفع الفقير إلا إذا كان جوادًا منعمًا ومثله مستحق للحمد» [(٢)] .

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ .

فهو القادر على كل شيء ، فإن يشأ إذهابكم يذهبكم ويأت بآخرين ولا تضرونه شيئًا .

﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أي : ليس بصعب ولا ممتنع ، «فإن أمره تعالى إذا أراد شيئًا أن يقول له : كن فيكون» [(٣)] . وكما قال سبحانه : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد : ٣٨] .

وجاء بالباء في خبر (ما) للتوكيد .

وقد يقول قائل : لقد قال ربنا سبحانه في سورة النساء : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء : ١٣١ ـ ١٣٣] .

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٠٧ .
(٢) روح المعاني ٢٢/ ١٨٣ .
(٣) روح المعاني ٢٢/ ١٨٤ ، وانظر الكشاف ٢/ ٥٧٤ .

١ ـ فقد قال سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ بالفعل (كان) وعدم تعريف: غني حميد.

في حين قال في فاطر: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ بالتعريف وذكر ضمير الفصل (هو)، وعدم ذكر (كان).

فما الفرق؟

والجواب ـ والله أعلم ـ أن آية النساء ذكرت أقوامًا ماضين مع الحاضرين المخاطبين. فقد قال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وهذه الأقوام ماضية، فقد قال سبحانه: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾. وقال: (وإياكم) وهم حاضرون مخاطبون.

فناسب ذكر (كان) التي هي فعل ماض، وهي هنا دالة على الاستمرار بمعنى (لم يزل) كما ذكر كثير من النحاة[1].

أو بمعنى: هذا كونه وحقيقته وصفته[2].

٢ ـ وأنه لم يعرّف الغني الحميد كما في آية فاطر، وذلك أنه قال سبحانه في فاطر: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فجميعهم فقراء إلى الله، فهو الغني وحده.

ولم يذكر نحو ذلك في سياق آية النساء.

وذكر في سياق آية فاطر أن له الملك فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ [فاطر: ١٣].

فله الملك كله، وهي أعم من قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

---

(١) التسهيل ٥٥، الهمع ١/ ١٢٠، الإتقان ١/ ١٦٨، البرهان ٤/ ١٢١ ـ ١٢٧.

(٢) انظر كتابنا (معاني النحو) ١/ ٢٦٦.

فإنه له الملك كله ، وما في السماوات وما في الأرض جزء منه ، فناسب التعريف من جهة أخرى .

وعرّف (الحميد) لأنه نعت لـ (الغني) الذي هو معرّف بأل من جهة ، ومن جهة أخرى لما ذكر من نعمه على خلقه في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ . . .﴾ ، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ . . .﴾ ، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ وغيرها ، ناسب تعريف (الحميد) لذكر نعمه على خلقه ، إضافة لكونه نعتًا لمعرفة .

ولم يذكر مثل ذلك في آية النساء .

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه .

ثم إن ما في فاطر أعمّ مما ورد في سياق آية النساء .

١ ـ فقد قال في فاطر : ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ .

وهو أعمّ من قوله في النساء : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ .

فالغني أعمّ وأوسع من (غني) .

والحميد أعمّ وأوسع من (حميد) .

فإن (الغني) يشمل (غني) وزيادة .

و(الحميد) يشمل (حميد) وزيادة .

وغير المقيد بزمان أعمّ من المقيد .

٢ ـ وقوله في فاطر : ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ﴾ أعمّ وأوسع من قوله : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ في النساء كما ذكرنا .

٣ ـ وقوله في فاطر : ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أعمّ مما في قوله : ﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ﴾ في النساء .



فإن كلمة (خلق) عامة تشمل جميع المخلوقات.

وأما (آخرين) فهي جمع مذكر سالم للعقلاء، أي: آخرين من الناس، وهم قسم من الخلق.

٤ ـ وقال في آية النساء: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾.

وقال في آية فاطر: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: ما على الإتيان بالخلق بصعب.

فآية النساء تخص الإتيان بآخرين.

فما في فاطر أعمّ. ثم إنه قال في أول فاطر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أعمّ من قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾. فقوله: (على ذلك) يدخل في قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فهو جزء منه. فناسب كل تعبير موضعه.

ومن المناسب أن نذكر أن قوله سبحانه في النساء: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ مناسب لما ورد في الآيات قبلها وبعدها بالإخبار عن صفاته سبحانه بـ (كان) في نحو قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦]، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٢٧]، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨]، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩]، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤] وغيرها من الآيات.

ثم إنه قال في الآية الأولى من سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، فهي مناسبة لفواصل الآي قبلها وبعدها.

قد تقول: ولكن الله قال في آخر سورة النساء: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [النساء: ١٧٦] ولم يقل: (وكان الله بكل شيء عليمًا) كما في الآيات الأخرى.

فنقول: إن قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ هو المناسب لسياقه، فإن الآية في سياق المستقبل، فقد قال سبحانه في الآية: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ . . .﴾ فهذا في الاستقبال فيمن تحصل له الوفاة، وهذه الآية في المواريث، فناسب عدم ذكر (كان) التي لفظها للمضي مع أنه سيهلك في المستقبل.

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه، والله أعلم.

* * *

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

الوِزْر: الحمل الثقيل، والوِزْر: الذنب لثقله، وجمعهما أوزار، «يقال: وزر يزر إذا حمل ما يُثقل ظهره من الأَشياء المُثقلة ومن الذنوب. . . والآثام تسمى أَوزارًا لأَنها أَحمال تُثقله»(١).

والوازر: الآثم، والوازرة: النفس الآثمة.

جاء في (الكشاف): «الوزر والوقر أخوان، ووزر الشيء إذا حمله. والوازرة صفة للنفس»(٢).

ومعنى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل نفس آثمة إثم غيرها، بل كل نفس تحمل إثمها هي لا إثم غيرها. «فإن قلت: كيف نوفق بين هذا وبين قوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]؟

قلت: تلك الآية في الضالّين المضلّين، وأنهم يحملون أثقال إضلال

---

(١) لسان العرب (وزر).

(٢) الكشاف ٢/ ٥٧٤.

الناس مع أثقال ضلالهم ، وذلك كله أوزارهم ما فيها شيء من وزر غيرهم . ألا ترى كيف كذبهم الله تعالى في قولهم : ﴿ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ﴾ بقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ﴾ [العنكبوت : ١٢]» (١) .

«ومثل هذا حديث : (من سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة) فإن الذي سنّ السنّة السيئة إنما حمل وزر سنّته السيئة» (٢) .

ونحو هذا حديثه ﷺ : (من سنّ في الإسلام سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء . ومن سنّ في الإسلام سنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء) .

﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ﴾ .

أي : إن تدعُ نفس أثقلتها الأوزار إلى أن يحمل شيء من أوزارها لم يُجب إلى ذلك أحد ، فكلٌّ مرهون بثقله وأوزاره هو .

ولم يذكر مفعولاً للفعل (تدعُ) أي : وإن استغاثت بكل أحد إلى أن يحمل من أوزارها شيئًا ؛ لم يجبها إلى ذلك ولو كان أقرب القرابة ، ولو كان المدعو أباها أو ابنها أو أخاها أو أحد معارفها ، بل كل يفر منها وهو مشغول بشأنه هو ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٤ـ٣٧] .

جاء في (التحرير والتنوير) : «وحذف مفعول (تدع) لقصد العموم . والتقدير : وإن تدع مثقلة أيَّ مدعو» (٣) .

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٧٤ .
(٢) فتح القدير ٤/ ٣٣٤ .
(٣) التحرير والتنوير ٩/ ٢٨٩ .

وجاء بالفعل (تدعُ) مضارعًا للدلالة على تكرار الدعوة والإلحاح فيها ، وذلك يدل على زيادة سوء الحال التي هي فيها وعظمها في ذلك اليوم العبوس القمطرير. نسأل الله أن يقينا شر ذلك اليوم وأن يلقينا نضرة وسرورًا.

«فإن قلت: ما الفرق بين معنى قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وبين معنى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾؟

قلت: الأول في الدلالة على عدل الله تعالى في حكمه ، وأنه تعالى لا يؤاخذ نفسًا بغير ذنبها.

والثاني: في أن لا غياث يومئذ لمن استغاث ، حتى أن نفسًا قد أثقلتها الأوزار وبهظتها لو دعت إلى أن يخفف بعض وقرها ؛ لم تجب ولم تغث وإن كان المدعو بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ»[1].

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾.

أي: إنما ينفع إنذارك الذين يخشون ربهم ، فهم الذين يستجيبون لإنذارك ، كما قال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ [الأعلى: ١٠ ـ ١١].

وليس المقصود أنك تنذر هؤلاء دون غيرهم ، وإنما المقصود الاستجابة للإنذار. جاء في (التحرير والتنوير): «﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ أطلق الإنذار هنا على حصول أثره ، وهو الانكفاف أو التصديق به ، وليس المراد حقيقة الإنذار ، وهو الإخبار عن توقع المكروه... فتعين أن تعلق الفعل المقصور عليه بـ ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ تعلّق

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٧٤.

على معنى حصول أثر الفعل» [١].

ومعنى الخشية «خوف يشوبه تعظيم ، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه ، ولذلك خُص العلماء بها في قوله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾» [٢].

ومعنى ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي: يخشونه وإن لم يشاهدوه سبحانه ، فكما آمنوا به بالغيب يخشونه بالغيب.

ومن معانيها أنهم «يخشونه تعالى غائبين عن عذابه سبحانه أو عن الناس في خلواتهم أو يخشون عذاب ربهم غائبًا عنهم» [٣].

وقد ورد في التعبير القرآني ذكر الخشية مطلقة لم يذكر معها الغيب. كما ورد ذكرها مقترنة بذكر الغيب ، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ١ـ٣].

وقوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ [النازعات: ٢٦].

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد: ٢١].

فهذه مطلقة.

كما ذكرها مقترنة بذكر الغيب كما في آية فاطر هذه.

وكقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك: ١٢].

وقد ذكرنا طرفًا من أسرار التعبير في ذكر الخشية مطلقة أو مقترنة بذكر

---

(١) التحرير والتنوير ٩/ ٢٩٠.

(٢) المفردات في غريب القرآن (خشي).

(٣) روح المعاني ٢٢/ ١٨٥ـ١٨٦ ، وانظر الكشاف ٢/ ٥٧٥ ، البحر المحيط ٧/ ٣٠٨.

الغيب في تفسيرنا لسورة يس في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [يس: ١١] فلا نعيد القول فيه(١).

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: داوموا عليها «وراعوها كما ينبغي»(٢).

﴿وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ أي: ومن تطهر من الذنوب والآثام فإنما يعود نفع ذلك عليه لا على غيره. وجاء بـ (إنما) للحصر، أي: لا يعود نفع التزكي إلا على من تزكى وتطهر لا على غيره.

وقد اقترن ذكر التزكي بالصلاة في هذه الآية. ونظير ذلك قوله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٤ ـ ١٥].

وقريب من ذلك اقتران الصلاة بالزكاة في مواضع كثيرة في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ في مواضع متعددة.

ومن المعلوم أن لفظ الزكاة ـ وهي العبادة المعروفة في الأموال ـ فيه معنى التطهر والنماء كما هو معلوم.

ففي ذلك قرب من الناحية اللغوية لما مر في قوله: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ كما هو ظاهر.

﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ لا إلى غيره، يثيب المحسن ويعاقب المسيء.

* * *

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢٣].

قيل: إن هذه الأشياء جيء بها على سبيل الاستعارة. فالأعمى

---

(١) على طريق التفسير البياني ٢/ ٤٤ وما بعدها.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ١٨٦.

والبصير مثلان للكافر والمؤمن.

وقد استعمل القرآن الكريم الأعمى والبصير لنحو هذا في مواضع ، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وقوله: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

والظلمات والنور قيل: هما الباطل والحق ، أو الكفر والإيمان. وقد وردت الظلمات والنور في نحو ذلك. ومنه قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد: ٩].

وقوله: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠-١١].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

والظل والحرور قيل: هما الثواب والعقاب. وقيل: الجنة والنار ، أو الراحة والتعب.

والأحياء والأموات قيل: هو تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين. وقيل: للعلماء والجهلاء[(١)].

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

وقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فهو نفي للاستواء بين هذه المذكورات.

فالأعمى والبصير لا يستويان، وكذلك الظلمات والنور، والظل والحرور، والأحياء والأموات.

وكررت (لا) لتوكيد المنافاة، فالظلمات تنافي النور وتضادّه، وكذلك ما بعده. فـ (لا) زائدة مؤكدة.

وقيل: هي غير مؤكدة، بل يراد بالمذكورات الجنس. فإن الظلمات لا تستوي، وكذلك النور.

وكذلك الظل والحرور.

والأحياء لا يستوون، والأموات لا يستوون[(٢)].

والذي يبدو لي أن المعنيين مرادان، وتكرار (لا) إنما هو للتوسع في المعنى، وذلك ليجمع المعنيين.

فإن الظلمات لا تستوي، فبعضها أشد من بعض.

وكذلك النور.

---

(١) انظر البحر المحيط ٧/ ٣٠٨-٣٠٩، روح المعاني ٢٢/ ١٨٦، الكشاف ٥/ ٥٧٥.

(٢) انظر الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ٩/ ٢٢٣.

والظلمات والنور لا يستويان .

والظل لا يستوي ، فبعضه أبرد وأتمّ من بعض .

والحرور لا يستوي ، فبعضه أشد من بعض وأحرّ .

والظل والحرور لا يستويان .

والأحياء لا يستوون ، فبعضهم أكمل وأحسن من بعض .

وكذلك الأموات .

والأحياء والأموات لا يستوون .

ولو حذف (لا) لم يكن لها إلا معنى واحد ، وهو نفي الاستواء بين الجنسين[١] .

وقدّم الأعمى على البصير لأن المقصود بالأعمى الكافر كما ذكرنا . والمقصود بالبصير المؤمن . وإن الكافر موجود قبل البعثة فقدّم الأقدم .

ونحوه تقديم الظلمات على النور . فمما قيل فيهما : إنهما الكفر والإيمان ، أو الباطل والحق . فقدم الظلمات وهي الكفر أو الباطل لأنه أقدم من الحق الذي جاء به الرسول . وهو نظير تقديم الأعمى على البصير .

جاء في (روح المعاني) : «وقدم الأعمى على البصير مع أن البصير أشرف ؛ لأنه إشارة إلى الكافر وهو موجود قبل البعثة والدعوة إلى الإيمان .

ولنحو هذا قدّم الظلمات على النور ، فإن الباطل كان موجودًا فدمغه الحق ببعثته عليه الصلاة والسلام»[٢] .

---

(١) انظر كتابنا (الجملة العربية والمعنى) ٢٣٢ .

(٢) روح المعاني ٢٢/ ١٨٦ .

وجاء في (البحر المحيط) أنهم «كانوا قبل المبعث في ضلالة ، فكانوا كالعمي ، وطريقهم الظلمة . فلما جاء الرسول واهتدى به قوم ، صاروا بصيرين وطريقهم النور . وقدّم ما كان متقدّمًا من المتصف بالكفر وطريقته على ما كان متأخرًا من المتصف بالإيمان وطريقته» [١] .

وقدّم الظل على الحرور ، قيل : لمناسبته للأعمى الذي لا يبصر ، وللظلمات فإنها لها شبه بالظل ، فكان التقديم على نمط واحد .

وقيل : لأنه ذكر مآل المذكورين ومرجعهم ، فقدّم الرحمة وهو الظل على الغضب وهو الحرور ، إذ إن رحمته سبقت غضبه .

جاء في (روح المعاني) : «ولم يقدّم الحرور على الظل ليكون على طرز ما سبق من تقديم غير الأشرف ، بل قدّم الظل رعاية لمناسبته للعمى والظلمة من وجه ، أو لسبق الرحمة مع ما في ذلك من رعاية الفاصلة» [٢] .

وجاء في (البحر المحيط) : «ثم لما ذكر المآل والمرجع ، قدّم ما يتعلق بالرحمة على ما يتعلق بالغضب ، كما جاء : سبقت رحمتي غضبي ، فقدّم الظل على الحرور» [٣] .

وقدّم الأحياء على الأموات نظير تقديم ما قبله ، فكما قدّم الأعمى على البصير قدّم الظلمات على النور . فتقديم الظلمات على النور مناسب لتقديم الأعمى على البصير .

فالظلمات للأعمى ، والنور للبصير .

وقدّم الأحياء على الأموات مناسبة لتقديم ما قبله ، وهو قوله تعالى :

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٠٩ .

(٢) روح المعاني ٢٢/ ١٨٧ .

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٠٩ .



﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ .

فالظل مآل الأحياء وهم المؤمنون .

والحرور مآل الأموات وهم الكافرون .

وقيل : إن المراد بالأموات فاقدو الحياة .

فالأحياء أسبق بهذا المعنى ؛ لأن الموت بعد الحياة ، فالتقديم والتأخير بحسب السبق ، فيكون مناسبًا لما قبله من تقديم الأسبق. وقيل غير ذلك .

جاء في (روح المعاني): «وقدّم الأحياء على الأموات ، ولم يعكس الأمر ، ليوافق الأولين في تقديم غير الأشرف ؛ لأن الأحياء إشارة إلى المؤمنين بعد الدعوة ، والأموات إشارة إلى المصرِّين على الكفر بعدها ، ولذا قيل بعد: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾ إلخ .

ووجود المصرّين بوصف الإصرار بعد وجود المؤمنين .

وقيل: قدم ما قدم فيما عدا الأخير لأنه عدم وله مرتبة السبق. وفي الأخير لأن المراد بالأموات فاقدو الحياة بعد الاتصاف بها كما يُشعر به إرداف ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ فيكون للحياة مع أنها وجودية رتبة السبق أيضًا» (١) .

وجمع الظلمات «لأن طرق الكفر متعدّدة ؛ وأفرد النور ؛ لأن التوحيد والحق واحد» (٢) .

وجاء في (الدر المصون): «وجَمَعَ الظلماتِ لأنها عبارةٌ عن الكفرِ

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ١٨٧ .

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٠٩ ، وانظر التفسير الكبير للرازي ٩/ ٢٣٣ .

والضلالِ ، وطرقُهما كثيرةٌ متشعبةٌ ، ووحَّد النورَ لأنه عبارةٌ عن التوحيد وهو واحد» [١] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾ أي : من ينفع فيهم إنذارك ، وأما الموتى فلا ينفع فيهم إنذارك . وعبّر عن (الموتى) بـ(من في القبور) للدلالة على أنهم أبعد عن الاستفادة للحاجز بينك وبينهم إذ هم في القبور . فإن الميت إذا كان قريبًا منك ولم يدفن بعد لم ينفعه إنذارك ، فكيف إذا كان في القبر وبينك وبينه حاجز القبر؟

جاء في (التحرير والتنوير) : «استُعير (من في القبور) للذين لم تنفع فيهم النذر . وعبّر عن الأموات بـ(من في القبور) لأن من في القبور أعرق في الابتعاد عن بلوغ الأصوات ، لأن بينهم وبين المنادي حاجز الأرض . فهذا إطناب أفاد معنًى لا يفيده الإيجاز بأن يقال : وما أنت بمسمع الموتى» [٢] .

﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾

«أي : ما عليك إلا أن تبلّغ وتنذر» [٣] .

إن في هذا التعبير توكيدًا ومبالغة ، فالتوكيد إنما هو في النفي بـ(إنْ) و (إلا) وذلك أنه أسلوب قصر ، وإن في القصر قوة .

ثم إنه نفى بـ (إنْ) ولم ينف بـ (ما) ، و(إنْ) آكد في النفي من (ما) [٤] .

وقال : (نذير) ولم يقل : (منذر) ، و(نذير) صيغة مبالغة على وزن

---

(١) الدر المصون ٩/ ٢٢٥ .

(٢) التحرير والتنوير ٩/ ٢٩٥ .

(٣) روح المعاني ٢٢/ ١٨٨ .

(٤) انظر كتابنا (معاني النحو) ٤/ ٢٣٥ وما بعدها .

(فعيل) [(١)] مثل سميع وعليم .

وأما (منذر) فهي اسم فاعل ، ومن المعلوم أن صيغة المبالغة تدل على الكثرة في الحدث والمبالغة فيه. فقد كلّفه ربُّه بالإنذار على وجه الاستمرار ، وقد أرسله بذلك كما في الآية التي بعدها .

وقال له في مواضع : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ [الرعد : ٧] ، ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴾ [النازعات : ٤٥] ليدلّ على أنه يقوم بالإنذار في جميع الحالات ، الحالات الثابتة والمتجددة .

فقد ينذر الشخص جماعة أو فردًا بأمر معين ، كأن ينذرهم بصاعقة أو من عدو قادم أو من وحش وغير ذلك وينتهي الإنذار ، فهو منذر .

فرسول الله ﷺ منذر ونذير كما هو مبشر وبشير .

ونحو ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ ما وصف به الله سبحانه باسم الفاعل وصيغ المبالغة كقوله سبحانه : (عالم) و(علاّم) ، و(غافر) و(غفور) وذلك نحو قوله سبحانه : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ ﴾ و﴿ عَلَّـٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ ، وقوله : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ﴾ [غافر : ٣]، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] فللمفرد جاء باسم الفاعل ، وللكثرة جاء بالمبالغة .

* * *

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤].

لهذا التعبير أكثر من معنى بحسب التقديرات .

فقد يكون معنى ﴿ أَرۡسَلۡنَـٰكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي : أنت مرسَل به ، فالحقّ معك تحمله ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٍ ﴾ [النمل : ٣٥] فالحقّ هو

---

(١) انظر البحر المحيط ١/ ٣٦٧ في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [البقرة : ١١٩].

ما أُرسلت به إلى قومك وإلى الناس كافة ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [غافر : ٢٣] .

وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٧٠] .

وقوله : ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ٧٥] .

وقوله : ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴾ [سبأ : ٣٤] .

أو على أن (بالحق) حال من ضمير الفاعل (نا) في (أرسلناك) ، أي : أرسلناك محقين .

أو على أنه حال من ضمير المفعول (الكاف) أي : محقًّا .

أو على أنه صفة لمصدر محذوف ، أي : أرسلناك مصحوبًا بالحق .

أو على أن يكون (بالحق) متعلقًا بقوله : ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أي : بشيرًا بالوعد الحق ، ونذيرًا بالوعيد الحق .

جاء في (الكشاف) : «(بالحق) حال من أحد الضميرين ، يعني : محقًّا أو محقين .

أو صفة للمصدر ، أي : إرسالاً مصحوبًا بالحق .

أو صلة لبشير ونذير على : بشيرًا بالوعد الحق ، ونذيرًا بالوعيد الحق» (١) .

وكل هذه المعاني المحتملة مرادة .

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

أي : ما من جماعة كثيرة أو أمة من الأمم الماضية إلا مضى فيها نذير ينذرها ويحذرها .

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٧٥ ، وانظر روح المعاني ٢٢/ ١٨٨ ، البحر المحيط ٧/ ٣٠٩ .



وجاء بـ (من) للدلالة على الاستغراق ، و(إلا) للدلالة على القصر ، أي : لم تخلُ أمة من الأمم من ذلك .

جاء في (التفسير الكبير) : «قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ ﴾ لما قال : ﴿ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ بيّن أنه ليس نذيرًا من تلقاء نفسه ، إنما هو نذير بإذن الله وإرساله .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ تقريرًا لأمرين :

أحدهما : لتسلية قلبه حيث يعلم أن غيره كان مثله محتملاً لتأذي القوم .

وثانيهما : إلزام القوم قبوله ، فإنه ليس بدعًا من الرسل ، وإنما هو مثل غيره يدّعي ما ادّعاه الرسل ويقرّره» [١] .

* * *

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [فاطر : ٢٥ ـ ٢٦] .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ «من الأمم العاتية فلا تحزن من تكذيب هؤلاء إياك» [٢] .

وهو تسلية لرسوله ﷺ ، أي : هذه سنة الرسل مع أممهم [٣] فلا تحزن ولا تأسَ .

﴿ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ أي : بالمعجزات الظاهرة الدالة على صدقهم .

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ٢٣٤ .

(٢) روح المعاني ٢٢/ ١٨٨ .

(٣) التحرير والتنوير ٩/ ٢٩٨ .

﴿ وَبِٱلزُّبُرِ﴾ أي: بالصحف كصحف إبراهيم وزبور داود.

﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ كالتوراة والإنجيل(١).

فرسل الله كلهم جاؤوا بالبينات الدالة على صدقهم كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

وقال: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٩].

وقال مخاطبًا أمة محمد عليه السلام: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٨ـ٢٠٩].

وقال ربنا للناس عمومًا في سيدنا محمد ورسالته: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤] والبرهان: البينة.

وقال خزنة جهنم لمن في النار: ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [غافر: ٥٠].

فمن لم يأت ببينة فلا دليل على صدقه، وكان كلامه مجرد ادعاء وكذب.

---

(١) انظر روح المعاني ٢٢/ ١٨٨.

وبعضهم جاء بالزبر كصحف إبراهيم وزبور داود.

وبعضهم جاء بالكتاب المنير كسيدنا موسى الذي جاء بالتوراة، وسيدنا عيسى الذي جاء بالإنجيل.

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾.

لقد قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ بالاسم الظاهر ولم يأت بالضمير، فلم يقل: (ثم أخذتهم) وذلك لذمهم والإشعار بسبب العقوبة وهو كفرهم. جاء في (روح المعاني): «وضع الظاهر موضع ضميرهم لذمهم بما حيز الصلة والإشعار بعلة الأخذ»[1].

لقد قال في هذه الآية: ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ فجاء بـ (ثم) الدالة على التراخي. وقال سبحانه في غافر: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر: ٥] فقال: (فأخذتهم) بالفاء الدالة على التعقيب، وذلك أنه قال في غافر: ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ ﴾ أي: ليقتلوه، فقد هموا بقتل الرسول فلا يستدعي الأمر التراخي، وإنما يقتضي التعقيب فجاء بالفاء. بخلاف آية فاطر التي ليس فيها نحو ذلك، وإنما هي في سياق التبليغ.

وقال في الرعد نحو ما قال في فاطر، فقد قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد: ٣٢].

فقال: ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ ﴾ وذلك أنه قال: ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي:

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ١٨٨.

أمهلتهم وأخّرتهم ، والإملاء : «الإمهال والتأخير» [١] ، فناسب ذكر (ثم) وليس الفاء .

فناسب كل تعبير ما ورد فيه .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي : إنكاري عليهم .

لقد قال هنا في عاقبة الكافرين : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فذكر الإنكار .

وقال في موطن آخر : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد : ٣٢] .

فقال : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ فذكر العقاب . والعقاب أشد من الإنكار ، وذلك أنه ذكر في آية فاطر التكذيب ، وذكر في آية الرعد الاستهزاء ، وهو أشد من التكذيب ، إذ هو تكذيب وزيادة فزاد لهم في العقوبة [٢] .

ونحوه ما جاء في سورة غافر ، وذلك قوله سبحانه : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر : ٥] .

فذكر العقاب وذلك أنه :

ذكر التكذيب وذلك قوله : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ .

وذكر أنه همّت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، أي : ليقتلوه .

وذكر أنهم جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق .

---

(١) لسان العرب (ملا) .

(٢) انظر كتابنا (التعبير القرآني) ٢٧٠ ـ ٢٧١ ، وانظر ملاك التأويل ٢/ ٥٦٨ ـ ٥٦٩ .

فزاد على التكذيب الهمّ بقتل الرسل ، والمجادلة بالباطل ليدحضوا به الحق فزاد لهم في العقوبة فقال : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ .

فناسب كل تعبير موطنه الذي ورد فيه .

ومن المناسب أن نذكر التشابه والاختلاف بين هذه الآية وما جاء في آل عمران وذلك قوله سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴾ [آل عمران : ١٨٣ ـ ١٨٤] .

وأعني التشابه والاختلاف في الآية ١٨٤ وهي قوله : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴾

وقوله سبحانه في فاطر : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴾ [فاطر : ٢٥] .

ومن ذلك :

١ ـ أن آية فاطر في تكذيب الأمم الماضية وذلك قوله سبحانه : ﴿ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ . . . ﴾ ولذلك ذكر عاقبتهم فقال : ﴿ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [٢٦] .

وأما آية آل عمران فذكرت تكذيب الرسل ، ولم تذكر الذين كذبوهم ، فقد قال سبحانه : ﴿ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ ﴾ بالبناء للمجهول .

ولذلك عقّب آية فاطر بعقوبة الأمم المكذبة وإهلاكهم فقال : ﴿ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ .

ولما لم يذكر الأمم المكذبة في آية آل عمران لم يذكر عقوبة لهم ،

وإنما قال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وذكر عقوبة الذين قتلوا الأنبياء بغير حق فقال: ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [آل عمران: ١٨١].

٢ ـ قال في فاطر: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ بالفعل المضارع الدالّ على الاستمرار؛ لأنها في سياق التبليغ والدعوة وهي مستمرة.

وقال في آل عمران: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ بالفعل الماضي؛ لأنها في حادثة معينة، وهي الآية التي ذكرتها الآية ١٨٣[1].

٣ ـ قال في فاطر: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم . . .﴾ بتاء التأنيث الدالّ على الكثرة.

وقال في آل عمران: ﴿ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾، وقال: ﴿ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٨٣] بالتذكير لأنهم قلة.

٤ ـ ذكر الباء مع الزبر والكتاب المنير في آية فاطر فقال: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾.

ولم يذكرها في آية آل عمران، وإنما قال: ﴿ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾.

ويبدو لنا أن تكرارها يفيد التوكيد ومناسب للتفصيل الذي ورد في سياق الآية[2].

---

(١) انظر بيانها في تفسير الرازي ٣/ ٤٤٩، روح المعاني ٤/ ١٤٤، وغير ذلك من كتب التفسير.

(٢) انظر كتابنا (التعبير القرآني) ١٨٦ ـ ١٨٧.



وذكر صاحب (التحرير والتنوير) أن ذكر الباء إشارة إلى توزيع أصناف المعجزات على أصناف الرسل ، فمنهم الذي أتوا بآيات ، أي : خوارق عادات مثل صالح وهود ولوط . ومنهم من أتوا بالزبر ، وهي المواعظ التي يؤمر بكتابتها كزبور داود . ومنهم من جاؤا بالكتاب المنير ، مثل إبراهيم وموسى وعيسى .

فذكر الباء إشارة إلى توزيع أصناف المعجزات على أصناف الرسل .

وإن تركها إشارة إلى أن الرسل جاؤا بالأنواع الثلاثة ، مثل عيسى عليه السلام[1] .

* * *

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر : ٢٧ ـ ٢٨] .

ذكر سبحانه أنواعًا متعددة من قدرته :

فمن ذلك ما ذكره سبحانه من خلق الإنسان من تراب ثم جعله أزواجًا ، أي : أصنافًا .

وذكر أنواع الطعوم واختلافها في البحرين : العذب الفرات ، والملح الأجاج .

وذكر نفي الاستواء بين الأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، والظل والحرور ، مما يرى بالبصر ويدرك بالعقل .

---

(١) التحرير والتنوير ٩/ ٢٩٨ .

وفي هذه الآية ذكر من قدرته ما يرى بالبصر من اختلاف الألوان ، أو ما يدرك بالطعوم ، أو لهما جميعًا وغير ذلك .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ وهذه الرؤية قسمان : بصرية وقلبية .

فالفعل (رأى) يكون بصريًّا وقلبيًّا كما هو معلوم .

فإنزال الماء من السماء مشاهد وهي رؤية بصرية .

وكون أن الله هو الذي أنزله من السماء أمر عقلي يعرف بالعقل .

فالرؤية هنا بصرية من جهة وعقلية من جهة أخرى ، والخطاب عام لكل من يسمع . جاء في (البحر المحيط) : «لما قرر تعالى وحدانيته بأدلة قربها وأمثال ضربها ، أتبعها بأدلة سماوية وأرضية فقال : (ألم تر) ، وهذا الاستفهام تقريري ، ولا يكون إلا في الشيء الظاهر جدًّا . والخطاب للسامع ، و(تر) من رؤية القلب ؛ لأن إسناد إنزاله تعالى لا يستدل عليه إلا بالعقل الموافق للنقل ، وإن كان إنزال المطر مشاهدًا بالعين ، لكن رؤية القلب قد تكون مسندة لرؤية البصر ولغيرها» (١) .

وجاء في (روح المعاني) : «والرؤية قلبية لأن إنزال المطر وإن كان مدركًا بالبصر ، لكن إنزال الله تعالى إياه ليس كذلك . والخطاب عام ، أي : ألم تعلم أن الله تعالى أنزل من جهة العلوِّ ماء» (٢) .

(فأخرجنا) وهو التفات من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم للتعظيم : تعظيم المتكلم وتعظيم النعمة والمنة على الناس ، فإن نعمة إخراج الثمرات للناس أتم من نعمة الإنزال ، وليدل على أن المتكلم هو الله سبحانه ، وليس إخبار مخبر عنه سبحانه .

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣١٠ .

(٢) روح المعاني ٢٢/ ١٨٩ .



جاء في (البحر المحيط): «وخرج من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم في قوله: (فأخرجنا)، لما في ذلك من الفخامة، إذ هو مسند للمعظم المتكلم، ولأن نعمة الإخراج أتمّ من نعمة الإنزال لفائدة الإخراج، فأسند الأتمّ إلى ذاته بضمير المتكلم، وما دونه بضمير الغائب» (١).

وجاء في (روح المعاني): (فأخرجنا) والالتفات لإظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة» (٢).

وجاء في (الدر المصون): (فأخرجنا) هذا التفاتٌ من الغَيْبةِ إلى التكلم، وإنما كان ذلك لأنَّ المِنَّةَ بالإخراج أبلغُ من إنزال الماء» (٣).

﴿ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾.

اللون هيئة كالسواد والبياض والحمرة والصفرة وغير ذلك. ويعبّر به عن الأجناس والأنواع أيضًا. قال الراغب: «اللون معروف وينطوي على الأبيض والأسود وما يركّب منهما... ويعبّر بالألوان عن الأجناس والأنواع، يقال: فلان أتى بالألوان من الأحاديث، وتناول كذا ألوانًا من الطعام» (٤).

وجاء في (القاموس المحيط) للفيروزابادي: «اللون ما فصل بين الشيء وبين وغيره، والنوع وهيئة كالسواد... والمتلوّن من لا يثبت على خلق واحد» (٥).

وجاء في (لسان العرب): «اللون هيئة كالسواد والحمرة... واللون:

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣١٠، وانظر التفسير الكبير للرازي ٩/ ٢٣٥.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ١٨٩.

(٣) الدر المصون ٩/ ٢٢٦.

(٤) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (لون).

(٥) القاموس المحيط (لون).

النوع. وفلان متلوِّن إذا كان لا يثبت على خلق واحد» [١].

والآية تحتمل المعنيين، وإن كان ما يتعلق بما يرى من الألوان المختلفة كالسواد والبياض وغيرهما من الألوان أظهر، لما ذكر بعد ذلك من ألوان جدد الجبال وغيرها. جاء في (روح المعاني): «﴿ثَمَرَٰتٍ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ﴾ أي: أنواعها من التفاح والرمان والعنب والتين وغيرها مما لا يحصر. وهذا كما يقال: فلان أتى بألوان من الأحاديث، وقدّم كذا لونًا من الطعام... [وقيل]: إنه حمل الألوان على معناها المعروف واختلافها بالصفرة والحمرة والخضرة وغيرها... وهو الأوفق لما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ﴾» [٢].

﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾.

الجُدَد: جمع (جُدّة) «وهي الطريقة تكون من الأرض والجبل، كالقطعة العظيمة المتصلة طولاً» [٣].

﴿مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا﴾ وهو ما يرى من الألوان المختلفة من الأبيض والأحمر والأسود.

و(غرابيب) جمع غربيب، وهو الأسود الشديد السواد. و(سود) صفة، وقيل: تأكيد لفظي [٤].

فذكر اختلاف الألوان في الثمرات والطرائق في الجبال، وذكر اختلاف الألوان في الناس والدواب والأنعام.

---

(١) لسان العرب (لون).

(٢) روح المعاني ٢٢/ ١٨٩.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٩٦، وانظر روح المعاني ٢٢/ ١٨٩.

(٤) انظر روح المعاني ٢٢/ ١٨٩.



﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ .

بعد أن ذكر ما ذكر من مظاهر قدرته سبحانه قال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ ، فمن كان أكثر علمًا كان أشدّ خشية له .

والملاحظ أنه لم يذكر هذا الوصف تعقيبًا على العلم بالدين ، وإنما ذكر من مظاهر قدرته ما ذكر ، ثم ذكر أهل هذا الوصف ، ليدلّ على أن العلم بالله ليس مقصورًا على أمر معين ، بل كل ما في الوجود يدلّ على عظيم قدرته سبحانه ومدعاة لخشيته سبحانه .

وقصر هذا الوصف على العلماء به سبحانه ، فهم الذين يخشونه حق الخشية . جاء في (فتح القدير) : «﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ على معنى إنما يخشاه سبحانه بالغيب العالمون به ، وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة ، وعلى كل تقدير فهو سبحانه قد عيّن في هذه الآية أهل خشيته وهم العلماء به وتعظيم قدرته . . . فمن كان أعلم بالله كان أخشاهم له . . . ووجه تقديم المفعول أن المقام مقام حصر الفاعلية ، ولو أخّر انعكس الأمر» [١] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ .

لما قال قبل هاتين الآيتين : ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [فاطر : ٢٦] عُلم من ذلك أن الله عزيز ، والعزيز هو القادر الغالب . ولا شك أن العلماء أعلم بذلك من غيرهم .

وقال : (غفور) ليدل على أنه غفور لأهل خشيته ، بل هو المبالغ في المغفرة لهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك : ١٢] وهو دعوة للخشية منه لينالوا مغفرته .

---

(١) فتح القدير ٤/ ٣٣٧ .

ونحو هذه الفاصلة ما ورد في سورة الملك وهو قوله سبحانه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ١ ـ ٢] فقد ذكر في الآية الأولى أنه بيده الملك وهو على كل شيء قدير، وذلك من عزته سبحانه.

وقال بعد: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ وإن المغفرة تكون لمن يعمل.

فناسب ذكر العزيز الغفور.

ومن الملاحظ أنه قال في آية فاطر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ بتنكير (عزيز غفور).

وقال في آية الملك: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ بالتعريف.

ولعل من أسباب ذلك، أنه ذكر في آية الملك أنه بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

فالذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير هو العزيز في الحقيقة، ولا عزيز غيره إلا ما يمنحه سبحانه من عزة.

ألا ترى كيف أنه لما قال في أول السورة أنه فاطر السماوات والأرض وأنه على كل شيء قدير وغير ذلك من مظاهر قدرته التي لا يشاركه فيها أحد؛ عرّف العزيز فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

جاء في (روح المعاني): «﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل لوجوب الخشية؛ لأن العزة دالّة على كمال القدرة على الانتقام، ولا يوصف بالمغفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة»[1].

* * *

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ١٩٢.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٩ ـ ٣٠].

«لما ذكر تعالى وصفهم بالخشية ، وهي عمل القلب ، ذكر أنهم يتلون كتاب الله ، وهو عمل اللسان ، وأقاموا الصلاة ، وهو عمل الجوارح ، وينفقون ، وهو العمل المالي ، وإقامة الصلاة والإنفاق يقصدون بذلك وجه الله لا للرياء والسمعة» (١).

وقال: ﴿ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ بالفعل المضارع للدلالة على الاستمرار والتجدد.

وقال: ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ بالماضي. والقرآن يذكر إقامة الصلاة والإنفاق بالفعل الماضي والمضارع ، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ليخبر عمن فعل ومن يفعل.

وقد بدأ بالتلاوة لأنها أكثر وليس لها وقت مخصص.

ثم ذكر بعدها إقامة الصلاة ؛ لأنها أقل فهي في أوقات معلومة محددة.

ثم ذكر بعدها الإنفاق ، وهو أقل من الصلاة ؛ فإن الصلاة فرض في كل يوم وفي أوقات محدودة ، وهي لا تسقط بحال من الأحوال لا في صحة ولا مرض.

أما الإنفاق فهو أقل من الصلاة ، فإن الصلاة فرض عين على كل مسلم ، وأما الإنفاق فعلى المقتدر.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣١٢ ، وانظر التفسير الكبير للرازي ٢٦/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧.

فبدأ بما هو أكثر ثم ما هو أقل فأقل.

وقيل: إن معنى (يتلون): يعلمون ما فيه ويعملون به. جاء في (الكشاف): «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ يداومون على تلاوته، وهي شأنهم وديدنهم... وقيل: يعلمون ما فيه ويعملون به» [(١)].

وجاء في (روح المعاني): «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي: يداومون على قراءته حتى صارت سمة لهم وعنوانًا، كما يشعر به صيغة المضارع ووقوعه صلة واختلاف الفعلين... وقيل: معنى ﴿يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ يتبعونه فيعملون بما فيه» [(٢)].

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ «أي: فعلوها في أوقاتها مع كمال أركانها وأذكارها» [(٣)].

﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

أي: ينفقون كيفما تهيأ ذلك وكيفما اتفق، من دون قصد إلى سر أو علن.

وقيل: إن صدقة السر في صدقة التطوع، والعلانية في المفروضة. جاء في (فتح القدير): «﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ فيه حثّ على الإنفاق كيفما تهيّأ، فإن تهيّأ سرًّا فهو أفضل، وإلاّ فعلانية... ويمكن أن يراد بالسرّ صدقة النفل، وبالعلانية صدقة الفرض» [(٤)].

قيل: «وفي تقديم السر إشارة إلى أنه أفضل لانقطاع شائبة الرياء منه،

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٧٧.
(٢) روح المعاني ٢٢/ ١٩٢.
(٣) فتح القدير ٤/ ٣٣٨.
(٤) فتح القدير ٤/ ٣٣٨، روح المعاني ٢٢/ ١٩٢.

وذكر العلانية للإشارة إلى أنهم لا يصدّهم مرأى المشركين عن الإنفاق ، فهم قد أعلنوا بالإيمان وشرائعه حبّ من حبّ وكره من كره» [١] .

وفي إسناد الفعل (رزقناهم) إلى ضمير التعظيم لإظهار المنة والنعمة من الرازق سبحانه على العبد ، فيشكر ويطيع بالإنفاق في السر والعلن .

وقيل : إن إسناد الفعل إلى نفسه سبحانه للإعلام بأنهم ينفقون من الرزق الحلال. جاء في (الكشاف): «وإسناد الرزق إلى نفسه للإعلام بأنهم ينفقون الحلال المطلق الذي يستأهل أن يضاف إلى الله ويسمى رزقًا منه .

وأدخل (من) التبعيضية صيانة لهم وكفًّا عن الإسراف والتبذير المنهي عنه» [٢] .

﴿ يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ .

التجارة مجاز عن فعل الطاعات ، فإن فاعلها يرجو الثواب كما يرجو التاجر الربح .

وهذه التجارة لن تكسد ولن تخسر ، بل إن فاعلها رابح قطعًا .

﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ .

فإن ربنا سبحانه يوفيهم أجر أعمالهم ويزيدهم عليها من فضله سبحانه .

﴿ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .

أي : غفور لفرطات المطيعين وتقصيرهم ، شكور لأعمالهم مجازيهم عليها ويزيدهم عليها من إثابته .

وجاء بصيغة المبالغة في غفور وشكور للدلالة على الزيادة في مغفرته وشكره وزيادة فضله .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٠٦ .

(٢) الكشاف ١/ ١٠١ .

ألا ترى أنه لما ذكر طاعة واحدة جاء باسم الفاعل (شاكر) ، فقد قال سبحانه : ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٥٨] .

فقد ذكر ركنًا واحدًا من أركان الحج والعمرة ، وهو الطواف بين الصفا والمروة ، فذكر اسم الفاعل (شاكر) .

وقد ذكر في آية فاطر عدة طاعات فناسب ذكر صيغة المبالغة ، فناسب كل تعبير موضعه .

وكذلك لما ذكر ذنبًا قال (غافر) باسم الفاعل ، وذلك قوله سبحانه : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ ﴾ [غافر : ٣] .

فلما قال سبحانه : (غفور) دل على مغفرة الذنوب كلها للطائعين .

والحمد لله رب العالمين .

* * *

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر : ٣١ ـ ٣٢] .

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي : القرآن .

وقوله : ﴿ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ أي : لا حقّ غيره . وتعريف (الحقّ) والمجيء بضمير الفصل (هو) أفادا التوكيد والحصر .

ولو قيل : (والذي أوحينا إليك الحق) لأفاد الإخبار المجرد[١] .

---

(١) انظر التفسير الكبير ٩/ ٢٣٧ ، التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٠٩ .



﴿ مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكدة .

﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي : لما تقدمه من الكتب الإلهية[١] . جاء في (التفسير الكبير) : «قوله : ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ حال مؤكدة لكونه حَقًّا ؛ لأن الحق إذا كان لا خلاف بينه وبين كتب الله يكون خاليًا عن احتمال البطلان» [٢] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾ .

(خبير) عالم بدقائق الأشياء وبواطنها . و(بصير) بما ظهر منها[٣] .

جاء في (التحرير والتنوير) : «الخبير : العالم بدقائق الأمور المعقولة والمحسوسة والظاهرة والخفية .

والبصير : العالم بالأمور المبصرة .

وتقديم الخبير على البصير لأنه أشمل . وذكر البصير عقبه للعناية بالأعمال التي هي من المبصرات وهي غالب شرائع الإسلام» [٤] .

وقيل : إن «تقديم (الخبير) للتنبيه على أن العمدة هي الأمور الروحانية ، وإلى ذلك أشار النبي ﷺ بقوله : (إن الله لا ينظر إلى أعمالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم)» [٥] .

ومن الملاحظ أنه أكد الفاصلة بـ (إن) و(اللام) فقال في آية فاطر هذه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾ .

وأكدها بـ (إن) وحدها في الشورى فقال : ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣١٣ .

(٢) التفسير الكبير ٩/ ٢٣٨ .

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣١٣ ، التفسير الكبير ٩/ ٢٣٨ .

(٤) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣١٠ .

(٥) روح المعاني ٢٢/ ١٩٤ .

لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى : ٢٧] .

ذلك ـ والله أعلم ـ أن آية الشورى في مسألة واحدة وهي بسط الرزق أو تنزيله بقدر .

وأما آية فاطر ففي الحقّ عامة وهو يشمل جميع جوانب الحياة في الدنيا والآخرة ، وتصديق ما أوحى الله إلى رسوله لما بين يديه من كتب الله ، وهو أعم وأوسع وأشمل فناسب التوكيد بـ(إن) واللام .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ ﴾ .

والاصطفاء هو الاختيار[١] . والمقصود بهم هم أمة محمد ﷺ ، فهم الذين أورثهم ربنا الكتاب .

جاء في (الكشاف) : «﴿ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ ﴾ وهم أمّته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة» [٢] .

وجاء في (روح المعاني) : «﴿ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ ﴾ أمة محمد ﷺ ، فإن الله تعالى اصطفاهم على سائر الأمم ، وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس» [٣] .

﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقُۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ﴾ .

الظالم لنفسه هو المسيء .

والمقتصد هو الذي خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا .

---

(١) لسان العرب (صفا) .

(٢) الكشاف ٢/ ٥٧٧ ـ ٥٧٨ .

(٣) روح المعاني ٢٢/ ١٩٤ .



والسابق هو الذي أخلص العمل لله وجرده من السيئات[١].

وقوله: ﴿ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾ أي بتوفيقه سبحانه ، فهو الذي وفقه للسبق.

جاء في (التفسير الكبير): «والسابق هو الذي لم يخالف بتوفيق الله ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾ أي: اجتهد ووفق لما اجتهد فيه وفيما اجتهد ، فهو سابق بالخير يقع في قلبه فيسبق إليه قبل تسويل النفس»[٢].

﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ أي: السبق بالخيرات ، فإنه هو الفضل الكبير.

ويحتمل أن يكون المقصود بالفضل الكبير هو إيراث الكتاب أمة محمد ، فإنه هو الفضل الكبير.

وقيل: إن توفيق الله هو الفضل الكبير ، وهو ما دل عليه قوله سبحانه: ﴿ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ فتوفيق الله سبحانه للسبق هو الفضل الكبير.

وكل ذلك محتمل.

جاء في (التفسير الكبير) للرازي: «وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ يحتمل وجوهًا:

أحدها: التوفيق المدلول عليه بقوله: ﴿ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾.

ثانيها: السبق بالخيرات هو الفضل الكبير.

ثالثها: الإيراث فضل كبير. هذا على الوجه المشهور من التفسير»[٣].

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ٢٣٩.

(٢) التفسير الكبير ٩/ ٢٣٩.

(٣) التفسير الكبير ٩/ ٢٣٩.

إن في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ تأكيدًا وقصرًا وذلك لتعريف الفضل، والمجيء بضمير الفصل (هو). جاء في (التحرير والتنوير) في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾: «وضمير الفصل لتأكيد القصر الحاصل من تعريف الجزأين. وهو حقيقي لأن الفضل الكبير منحصر في المشار إليه بـ (ذلك)، لأن كل فضل هو غير كبير إلا ذلك الفضل» (١).

وتقديم الظالم على المقتصد، والمقتصد على السابق للكثرة، فإن الظالم أكثر من المقتصد، والمقتصد أكثر من السابق بالخيرات. فالتقديم بحسب الكثرة. جاء في (الكشاف): «فإن قلت: لم قدّم الظالم ثم المقتصد ثم السابق؟ قلت: للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم، والسابقون أقلّ من القليل» (٢).

والله أعلم.

* * *

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٣-٣٥].

قال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ فقدّم الجنات ولم يقل: (يدخلون جنات عدن) للبشرى ومناسبة للفضل الكبير الذي ذكره في قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣١٤.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٧٨.

وقالوا في (جنات): إنها مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿ يَدۡخُلُونَهَا﴾ [(١)].

وقيل: بدل من الفضل الكبير الذي هو السبق بالخيرات[(٢)].

وكل ذلك يقتضي التقديم.

جاء في (التفسير الكبير) للرازي في قوله: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾: «ما الفائدة في تقديم الجنات على الفعل الذي هو الدخول وإعادة ذكرها بالهاء في (يدخلونها)، وما الفرق بين هذا وبين قول القائل: (يدخلون جنات عدن)؟

نقول: السامع إذا علم أن له مدخلاً من المداخل وله دخول ولم يعلم عين المدخل، فإذا قيل له: (أنت تدخل) فإلى أن يسمع الدار أو السوق يبقى متعلق القلب بأنه في أيِّ المداخل يكون، فإذا قيل له: (دار زيد تدخلها) فبذكر الدار يعلم مدخله، وبما عنده من العلم السابق بأن له دخولاً يعلم الدخول، فلا يبقى له توقف ولا سيما الجنة والنار، فإن بين المدخلين بونًا بعيدًا» [(٣)].

﴿ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗا﴾.

أساور جمع (أسورة)، وأسورة جمع (سوار).

فأساور جمع الجمع[(٤)]. قال تعالى على لسان فرعون في موسى عليه السلام: ﴿ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٥٣] فقال: (أسورة) بجمع القلة لأن الكلام في واحد.

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ١٩٨.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٧٨.

(٣) التفسير الكبير ٩/ ٢٤٠.

(٤) التفسير الكبير ٩/ ٢٤٠، وانظر لسان العرب (سور).



وقال في أهل الجنة: (أساور) بجمع الجمع لأنهم كثرة.

لقد قال في هذه الآية وفي آيات أخرى: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ بالمضارع، وقال في آية وهي في سورة الإنسان: ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾ بالماضي، وذلك ـ والله أعلم ـ أن ما جاء من هذا الفعل بالمضارع فالكلام فيه في الدنيا قبل أن يدخلوا الجنة. بخلاف ما في سورة الإنسان فإنه قاله بالماضي؛ لأن الكلام عنهم وهم داخلون في الجنة.

فقد قال في آية فاطر: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ يَدۡخُلُونَهَا﴾ بالفعل المضارع، فقال: (يُحلَّون) بالمضارع.

وقال في الحج: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾ [٢٣].

فقال: ﴿يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ. . .﴾، وقال: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا. . .﴾.

وقال في الكهف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ [الكهف: ٣٠ـ٣١].

فقد قال: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ. . .﴾.

فالكلام في المستقبل فقال: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا﴾ بالمضارع.

أما الكلام في سورة الإنسان فقد تكلم عنهم وهم في الجنة، فقد قال سبحانه: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا﴾ [الإنسان: ١١ ـ ١٢] إلى أن قال: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] بالماضي.

وقد ذكرنا في كتابنا (على طريق التفسير البياني ج١) سبب ذكر الفعل

المضارع في (فاطر) (يُحلَّون) ، وذكر الفعل الماضي (وحُلّوا) في سورة الإنسان .

وذكر اللؤلؤ في (فاطر) وعدم ذكره في سورة (الإنسان) ، فلا نكرر القول فيه[١] .

و(من) في قوله : ﴿ مِنۡ أَسَاوِرَ ﴾ قيل : هي للتبعيض «أي : يحلَّون بعض أساور كأنه بعض له امتياز وتفوق على سائر الأبعاض ، وجوز أن تكون للبيان»[٢] .

و(من) في قوله : ﴿ مِن ذَهَبٍ ﴾ بيانية . «وتنكير (أساور) لإبهام أمرها في الحسن»[٣] .

﴿ وَلُؤۡلُؤٗاۖ ﴾ عطف على محلّ ﴿ مِنۡ أَسَاوِرَ ﴾ ، أي : ويُحلَّون فيها لؤلؤًا[٤] .

جاء في (الكشاف) : «﴿ وَلُؤۡلُؤٗاۖ ﴾ معطوف على محلّ (من أساور) ، ومن داخلة للتبعيض ، أي : يحلَّون بعض أساور من ذهب ، كأنه بعض سابق لسائر الأبعاض ، كما سبق المسوّرون به غيرهم»[٥] .

وقال : ﴿ وَلُؤۡلُؤٗاۖ ﴾ بالعطف على المحلّ ، ولم يقل : (ولؤلؤ) بالجر بالعطف على اللفظ ، ذلك ـ والله أعلم ـ أن التحلية باللؤلؤ لا تختص بالأساور ، بل تكون فيها وفي الخواتم وفي القلائد والتيجان والحلل وغير ذلك .

---

(١) على طريق التفسير البياني ـ تفسير سورة الإنسان ١/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .
(٢) روح المعاني ٢٢/ ١٩٨ .
(٣) الكشاف ٢/ ٢٥٨ .
(٤) روح المعاني ٢٢/ ١٩٩ .
(٥) الكشاف ٢/ ٥٧٨ .

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ ذكر حُليّ أهل الجنة فقال: «(مسورون بالذهب والفضة، مكللون بالدر، عليهم أكاليل من در وياقوت متواصلة). وذكر أن الرجل يأخذ سبعين حُلّة ممنطقة باللؤلؤ والمرجان»[١].

وعن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ «تلا قوله عز وجل: ﴿جَنَّـٰتُ عَدۡنٍ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ فقال: إن عليهم التيجان، إن أدنى لؤلؤة منها لتضيء بين المشرق والمغرب»[٢].

فنصب اللؤلؤ للإطلاق، ولو عطف على اللفظ بالجر لأفاد تخصيص التحلية باللؤلؤ في الأساور فكان النصب أعمّ.

﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾

هذه صفة اللباس وحالته، فجاء بالجملة الاسمية للدلالة على الثبوت، أي: هذه حالة لباسهم الدائمة. فجاء بالتحلية بالفعل للدلالة على الحدوث، وجاء باللباس بالاسمية للدلالة على الثبوت.

جاء في (روح المعاني) في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾: «وتغيير الأسلوب حيث لم يقل: (ويلبسون فيها حريرًا) قيل: للإيذان بأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غني عن البيان، إذ لا يمكن عراؤهم عنه، وإنما المحتاج إلى البيان أن لباسهم ماذا، بخلاف الأساور واللؤلؤ فإنها ليست من اللوازم الضرورية»[٣].

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾

(وقالوا) «أي: يقولون، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق»[٤].

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم ١٢٧ ـ ١٢٩.
(٢) حادي الأرواح ١٣٠.
(٣) روح المعاني ٢٢/ ١٩٩.
(٤) روح المعاني ٢٢/ ١٩٩.

وقوله: (وقالوا) بالماضي لأنهم قالوها بعد الدخول ، وهي مناسبة لما ذكره في قوله: ﴿ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ وقوله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فهذه كلها أخبار عن أحوال كأنها ماضية ، فهم حمدوه على ما أسبغ عليهم من نعم إذهاب الحزن وإدخالهم الجنة. فناسب الإخبار بالمضي مع أنها مستقبلة.

﴿ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ أي: جميع أنواع الحزن في الدنيا والآخرة ، والألف واللام لاستغراق الجنس. جاء في (التفسير الكبير): «المراد إذهاب كل حزن ، والألف واللام للجنس واستغراقه ، وإذهاب الحزن بحصول كل ما ينبغي وبقائه دائمًا ، فإن شيئًا منه لو لم يحصل لكان الحزن موجودًا بسببه ، وإن حصل ولم يدم لكان الحزن غير ذاهب بعد بسبب زواله وخوف فواته» (١).

وجاء في (روح المعاني): «والأولى أن يراد جنس الحزن المنتظم لجميع أحزان الدين والدنيا والآخرة» (٢).

﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

(غفور) إشارة إلى ما غفر لهم ما تقدم من ذنوبهم ، وجاء بالغفور على صيغة المبالغة للدلالة على كثرة ما غفر لهم من ذنوبهم.

و(شكور) إشارة إلى ما أعطاهم من الزيادة في الفضل ومضاعفة الأجور ، فجاء بصيغة المبالغة (شكور) للدلالة على المبالغة في فضله وإحسانه ، و«عن ابن عباس: غفر لنا العظيم من ذنوبنا ، وشكر لنا القليل من أعمالنا» (٣).

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ٢٤١.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ١٩٩.

(٣) روح المعاني ٢٢/ ١٩٩.

وقدّم (الغفور) على (الشكور) لأنه غفر أولاً ما تقدم من ذنوبهم ، وجزاهم بعد المغفرة بالجنة ، وضاعف لهم الحسنات .

وقولهم : (إن ربنا) بإضافة الرب إليهم ، لأن الرب هو المتفضل والمنعم ، فتفضل عليهم بالمغفرة والزيادة في الفضل فقالوا : (ربنا) .

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر : ٣٥] .

دار المقامة ، أي : دار الإقامة والخلود التي هي الجنة ، بخلاف الدنيا التي هي دار موت وفناء .

وقوله : ﴿ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ يعني «من إنعامه سبحانه وتفضله وكرمه» [1] . فإن أعمالنا لا تستحق تلك المنزلة العظيمة الخالدة ، ولكن ذلك من تفضُّله سبحانه وإنعامه .

﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ .

النصب هو التعب والمشقة .

واللغوب هو الإعياء والكلال وهو نتيجة النصب .

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: ما الفرق بين النصب واللغوب؟ قلت : النصب : التعب والمشقة التي تصيب المنتصب للأمر المزاول له .

وأما اللغوب فما يلحقه من الكلال والفتور بسبب النصب . فالنصب نفس المشقة والكلفة. واللغوب : نتيجته وما يحدث منه من الكلال والفترة» [2] .

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ١٩٩ .
(٢) الكشاف ٢/ ٥٧٨ ـ ٥٧٩ .

وجاء في (التفسير الكبير): «اللغوب: الإعياء، والنصب هو السبب للإعياء»[(١)].

وقال: (لا يمسُّنا) فإن المسّ «هو أول ما يحس به من التعب»[(٢)].

وفي (التحرير والتنوير): «المسّ: الإصابة في ابتداء أمرها»[(٣)]. أي: لا يصيبهم شيء من ذلك ولو كان قليلاً.

وأعاد الفعل (لا يمسنا) في قوله: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ «لتأكيد انتفاء المسّ»[(٤)].

* * *

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧].

بعد أن ذكر أهل الجنة ودخولهم فيها وحَمْدَهم لربِّهم على ما أعطاهم من الفضل الكبير ذكر أهل النار وهو يصطرخون فيها. فأهل النار يصطرخون يقولون: ربنا أخرجنا نعمل صالحًا غير الذي كنا نعمل.

وأهل الجنة يقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن. ويقولون: الذي أحلّنا دار المقامة من فضله.

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ٢٤١.

(٢) لسان العرب (مس).

(٣) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣١٧.

(٤) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣١٧.

وأهل النار يقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾.

وأهل الجنة يقولون: ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾.

فأولئك عملوا السوء.

وهؤلاء غفر لهم ربهم وشكر أعمالهم وزادهم من فضله.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ ﴾ أي: لا يموتون فيستريحون.

﴿ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ بل هم في عذاب مستمر دائم، كما قال ربنا: ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٧] فإنه لم يقل: (كلما خبت أعدناها) كما لم يقل: (كلما خبت زدناها سعيرًا) أي: النار، بل قال: (زدناهم) فزادهم عذابًا واحتراقًا وسعيرًا.

﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء نجزي كل مبالغ في الكفر والكفران.

والكفر: الكفر في الدين.

والكفران أكثر استعمالاً في جحود النعمة[1].

و(الكفور) المبالغ فيهما أو في أحدهما. جاء في (روح المعاني): «﴿ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾ مبالغ في الكفر أو الكفران»[2].

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ أي: يصيحون بجهد وشدة[3]، والاصطراخ:

---

(١) الكليات ٣٠٥.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ٢٠٠.

(٣) الكشاف ٢/ ٥٧٩.

شدة الصياح. جاء في (فتح الرحمن في تفسير القرآن): «وهم يصطرخون أي: يستغيثون في جهنم بشدة وعويل»[١].

وجاء في (روح المعاني): «﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ﴾ انتقال من الصراخ وهو شدة الصياح... ويستعمل كثيرًا في الاستغاثة؛ لأن المستغيث يصيح غالبًا»[٢].

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ أي: يقولون ربنا أخرجنا.

﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ «أي: من الشرك، ونمتثل أمر الرسل، فنؤمن بدل الكفر، ونطيع بدل المعصية»[٣].

لقد قال في هذه الآية: ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

وقال في السجدة: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

فقال: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ ولم يقل كما قال في آية فاطر: ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ ذلك ـ والله أعلم ـ أنه ذكر في السجدة أنهم مجرمون فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ فلما ذكر أنهم مجرمون دلّ على أنهم لم يعملوا صالحًا، فلم يقل: غير الذي كنا نعمل مما كنا نحسبه صالحًا؛ لأن الإجرام غير الصلاح. جاء في (الكشاف) في قوله: ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾: «فإن قلت: هلاّ اكتفى بـ (صالحًا) كما اكتفى به في قوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ وما فائدة

(١) فتح الرحمن ٥/ ٤٥٧.
(٢) روح المعاني ٢٢/ ٢٠٠.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٣١٦.

زيادة ﴿ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ على أنه يؤذن أنهم يعملون صالحًا آخر غير الصالح الذي عملوه؟

قلت: فائدته زيادته التحسُّر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به. وأما الوهم فزائل لظهور حالهم في الكفر وركوب المعاصي، ولأنهم كانوا يحسبون أنهم على سيرة صالحة، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٤] فقالوا: أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نحسبه صالحًا فنعمله»(١).

وجاء في (روح المعاني): «وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسُّر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به، والإشعار بأن استخراجهم لتلافيه فهو وصف مؤكد، ولأنهم كانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، فكأنهم قالوا: نعمل صالحًا غير الذي كنا نحسبه صالحًا فنعمله. فالوصف مقيد»(٢).

﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾.

استفهام للتوبيخ، أي: فنقول لهم: ألم نمهلكم زمنًا كافيًا للتذكر؟

﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ وهم الأنبياء، فإن كلَّ نبيٍّ نذير أمته، وقيل: الشيب(٣). وقيل: هو رسول الله وما معه من القرآن(٤).

﴿ فَذُوقُوا۟ ﴾ أي: عذاب جهنم، وهو إشارة إلى الدوام وعدم الخلاص

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٧٩.

(٢) روح المعاني ٢/ ٢٠٠.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣١٦.

(٤) روح المعاني ٢٢/ ٢٠١، وانظر الكشاف ٢/ ٥٧٩.

من العذاب ، «وهو أمر إهانة» [(١)] .

﴿ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ .

لقد قال هنا : ﴿ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ بعد خطابهم بقوله : ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ وكان الأصل أن يقال : (فما لكم من نصير) ذلك أنه أراد أن يبين سبب انتفاء النصير وهو الظلم .

وأفاد ذلك العموم أيضًا .

فدخل في ذلك الظالمون عمومًا ، فالظالمون ليس لهم من نصير .

وجاء بـ (من) الاستغراقية للدلالة على انتفاء كل نصير. جاء في (التحرير والتنوير) في قوله: ﴿ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾: «وعدل عن ضمير الخطاب أن يقال: فما لكم من نصير ، إلى الاسم الظاهر بوصف (الظالمين) لإفادة سبب انتفاء النصير عنهم ؛ ففي الكلام إيجاز ، أي: لأنكم ظالمون وما للظالمين من نصير. فالمقصود ابتداء نفي النصير عنهم ويتبعه التعميم بنفي النصير عن كل من كان مثلهم من المشركين» [(٢)] .

وجاء في (تفسير الرازي): «إن الله تعالى قال في آل عمران : ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٢] ، وقال: ﴿ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [الروم: ٢٩].

وقال ههنا : ﴿ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ أي : هذا وقت كونهم واقعين في النار. فقد أيس كل منهم من كثير ممن كانوا يتوقعون منهم النصرة ، ولم يبق إلا توقعهم من الله تعالى ، فقال: ما لكم من نصير أصلاً ، وهناك كان

---

(١) تفسير الرازي ٩/ ٢٤٣ ، التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٢٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٢٠ .

الأمر محكيًّا في الدنيا أو في أوائل الحشر ، فنفى ما كانوا يتوقعون منهم النصرة وهم آلهتهم» (١) .

* * *

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [فاطر : ٣٨] .

أي : إن الله يعلم كل غيب في السماوات والأرض ويعلم خفايا الصدور وما فيها ، فاقتضت حكمته أن يعامل أهل الجنة بما ذكر من الفضل والنعيم وأهل النار بما يستحقون من العذاب والخلود فيها. جاء في (روح المعاني) : «﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ أي : كل غيب فيهما ، أي : لا يخفى عليه سبحانه خافية فيهما ، فلا تخفى عليه جل شأنه أحوالهم التي اقتضت الحكمة أن يعاملوا بها هذه المعاملة ولا يخرجوا من النار» (٢) .

وجاء في (الكشاف) : «﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ كالتعليل لأنه إذا علم ما في الصدور وهو أخفى ما يكون ؛ فقد علم كل غيب في العالم. (وذات الصدور) : مضمراتها» (٣) .

وجاء في قوله : ﴿ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ بصيغة اسم الفاعل (عالم) ، و(عليم) بصيغة المبالغة ، ذلك أنه سبحانه جاء بـ(الغيب) مفردًا ، وأنه إذا جاء بالغيب مفردًا جاء معه باسم الفاعل (عالم) في عموم ما ورد في القرآن الكريم .

---

(١) تفسير الرازي ٩/ ٢٤٣ .

(٢) روح المعاني ٢٢/ ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

(٣) الكشاف ٢/ ٥٧٩ ، وانظر فتح القدير ٤/ ٣٤٤ .

وإذا جاء بـ (الغيوب) جمعًا جاء معه بصيغة المبالغة (علاّم).

وإذا جاء بالعموم أو بالإطلاق ونحو ذلك جاء بصيغة المبالغة (عليم).

وقد ذكرنا في كتابنا (من أسرار البيان القرآني) استعمال كل من عالم وعلاّم وعليم.

فقد ذكرنا أن القرآن استعمل صفة (عالم) متعلقة بالغيب المفرد أو الغيب والشهادة ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ﴾ [سبأ: ٣]. . . ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وخصّ استعمال (علاّم) متعلقة بالغيوب جمع (الغيب)، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١٠٩].

واستعمل (عليم) غير مختصة بمعلوم معين، فقد تكون مطلقة غير مقيدة كقوله سبحانه: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢]، وقوله: ﴿ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٥].

أو بكل شيء، نحو قوله سبحانه: ﴿ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩].

أو بمجموع، كقوله تعالى: ﴿ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٩٥]، ﴿ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٥].

أو بما ارتبط بالمجموع، كقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقوله: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٥] (١).

وهو من دقائق الاستعمال.

* * *

(١) من أسرار البيان القرآني ٤٠ ـ ٤٢.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: ٣٩].

بعد أن ذكر ربُّنا أحوال أهل النار وهم يصطرخون فيها: ربنا أخرجنا نعمل صالحًا غير الذي كنا نعمل، وقال لهم ربهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ قال لهم هنا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فخلف بعضكم بعضًا، وعلمتم بما حلّ بمن قبلكم، واستخلفكم بدل من كان قبلكم؛ فلم تتعظوا بحالهم وما حلّ بهم، فمن كفر فعليه وبال كفره، ولا يزيده ذلك إلا احتقارًا وبغضًا عند ربه ولا يزيده إلا خسارًا.

فالمناسبة ظاهرة.

جاء في (البحر المحيط) في هذه الآية: «وفي هذا تنبيه على أنه تعالى استخلفهم بدل من كان قبلهم فلم يتعظوا بحال من تقدمهم من مكذبي الرسل وما حلّ بهم من الهلاك، ولا اعتبروا بمن كفر، ولم يتعظوا بمن تقدم...

والمقت: أشد الاحتقار والبغض والغضب.

والخسار خسار العمر، كأن العمر رأس مال، فإن انقضى في غير طاعة الله فقد خسره واستعاض به بدل الربح بما يفعل من الطاعات سخطَ الله وغضبَه بحيث صاروا إلى النار» [1].

وكرر (لا يزيد) في قوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ للتوكيد.

جاء في (روح المعاني): «والتكرير لزيادة التقرير والتنبيه على أن اقتضاء الكفر لكل واحدٍ واحدٌ من الأمرين الأمرّين؛ المقت والخسارة،

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣١٧، وانظر روح المعاني ٢٢/ ٢٠٢.



مستقلّ باقتضاء قبحه ووجوب التجنب عنه ، بمعنى أنه لو لم يكن الكفر مستوجبًا لشيء سوى مقت الله تعالى لكفى ذلك في قبحه ، وكذا لو لم يستوجب شيئًا سوى الخسار لكفى» [١] .

وقال : (خسارًا) للدلالة على الزيادة في الخسارة ، فإن القرآن الكريم يستعمل (الخسار) للزيادة في الخسارة [٢] .

وقال في هذه الآية : ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فقال : (في الأرض) .

وقال في سورة الأنعام : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام : ١٦٥] .

فقال : ﴿خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ بالإضافة ؛ ذلك أن آية فاطر للأمم السابقة ، بدليل الآيات قبلها من قوله : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ وما بعدها ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر : ٤٠] .

فناسب أن يقول : ﴿خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ذلك لأن هذا التعبير لا يقتضي العموم . بخلاف آية الأنعام ، فإنها للمسلمين ، وذلك من قوله سبحانه : ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١] وما بعدها . فذكر العموم ، فإن قوله : ﴿خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ بالإضافة أعمّ من قوله : ﴿خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ . فقولك مثلاً : (هو ملك بلاد الشام) أعم من قولك : (هو ملك في بلاد الشام) لأن هذا يحتمل أنه ملك في بعض بلاد الشام .

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ٢٠٢ .

(٢) انظر كتابنا (من أسرار البيان القرآني) ١٥ ـ ١٧ (الخسر ـ الخسار ـ الخسران) .

وقولك: (هو ملك الأرض) أعم من قولك: (هو ملك في الأرض) [(١)].

وذلك أن ربَّنا سبحانه جعل الإسلام خاتم الأديان، وأمة الإسلام هي خاتمة الأمم إلى قيام الساعة فقال فيهم: (خلائف الأرض) بالإضافة.

جاء في (الكشاف) في قوله تعالى: ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾: «لأنَّ محمدًا ﷺ خاتم النبيين، فخلفت أمّته سائر الأمم، أو جعلهم يخلف بعضهم بعضًا، أو هم خلفاء الله في أرضه يملكونها ويتصرفون فيها» [(٢)].

وجاء في (البحر المحيط) في هذه الآية: «أذكرهم تعالى بنعمته عليهم، إذ كان النبي ﷺ المبعث وهو محمد ﷺ خاتم النبيين، فأمّته خلفت سائر الأمم، ولا يجيء بعدها أمّة تخلفها، إذ عليهم تقوم الساعة» [(٣)].

وجاء في (التفسير الكبير) للرازي: «اعلم أن في قوله: ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ وجوهًا:

أحدها: جعلهم خلائف الأرض لأن محمدًا عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين فخلفت أمتُه سائرَ الأمم.

وثانيها: جعلهم يخلف بعضهم بعضًا.

وثالثها: أنهم خلفاء الله في أرضه يملكونها ويتصرفون فيها» [(٤)].

وأما الفرق بين الآيتين فقد ذكرته في كتابنا (أسئلة بيانية في القرآن

---

(١) أسئلة بيانية ٢/ ٨٥.
(٢) الكشاف ١/ ٥٣٨.
(٣) البحر المحيط ٤/ ٢٦٧.
(٤) التفسير الكبير ١٤/ ١٩٢.

الكريم) فلا نعيد القول فيه[(١)].

* * *

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ [فاطر: ٤٠].

بعد أن ذكر حال الكافرين في النار، خاطب الرسولَ ﷺ ليحاجّ المشركين فقال له: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ... ﴾

وقوله: (أرأيتم) يحتمل معنيين:

الأول: معناه (أخبروني). فإن (أرأيت) قد يكون معناه (أخبرني) نحو (أرأيت زيدًا ما صنع) أي أخبرني عن زيد ما صنع.

والآخر: معناه الاستفهام عن الرؤية بالعين، أي أرأيته بعينك، كأن تقول: (أرأيت زيدًا ما صنع؟) فيجيب المسؤول: نعم أو لا.

جاء في (لسان العرب): «في (أرأيتَ) لغتان ومعنيان:

أَحدهما: أن يسأَلَ الرجلُ الرجلَ: أرأيتَ زيدًا بعينك؟...

والمعنى الآخر: أَن تقول: أرأيتك وأَنت تقول أخبرني»[(٢)].

والآية تحتمل المعنيين.

فهي تحتمل أن يكون المعنى: أخبروني عن شركائكم الذين تدعون من دون الله ماذا خلقوا من الأرض، أخلقوا شيئًا فيها؟ أم لهم شرك مع الله في خلق السماوات فخلقوا شيئًا منها.

---

(١) أسئلة بيانية ٢/ ٨٥ـ٨٧، وانظر كشف المعاني لابن جماعة ٣٠٣.

(٢) لسان العرب (رأى).

وتحتمل أن يكون الاستفهام حقيقيًا ، و(أروني) فعل أمر للتعجيز ، أي : أروني ماذا خلقوا من الأرض ، أم أنهم اشتركوا مع الله في شيء من خلق السماوات .

جاء في (الكشاف) : «معنى أرأيتم (أخبروني) . كأنه قال : أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الإلهية والشركة ، أروني أي جزء من أجزاء الأرض استبدّوا بخلقه دون الله ، أم لهم مع الله شركة في خلق السماوات» [١] .

وجاء في (البحر المحيط) : «والذي أذهب إليه أن (أرأيتم) بمعنى (أخبروني) ، وهي تطلب مفعولين : أحدهما منصوب ، والآخر مشتمل على استفهام . تقول العرب : (أرأيت زيدًا ما صنع؟) فالأول هنا هو (شركاءكم) ، والثاني (ماذا خلقوا) ، و(أروني) جملة اعتراضية فيها تأكيد للكلام وتسديد . . .

وقيل : يحتمل أن يكون (أرأيتم) استفهامًا حقيقيًا ، و(أروني) أمر تعجيز للتبيين ، أي : أعلمتم هذه التي تدعونها كما هي وعلى ما هي عليه من العجز أو تتوهمون فيها قدرة؟ فإن كنتم تعلمونها عاجزة فكيف تعبدونها؟ أو توهمتم لها قدرة ، فأروني قدرتها في أي شيء هي؟ أهي في الأرض . . . أم في السماوات . . . أم قدرتها في الشفاعة لكم؟» [٢] .

«وقوله : (شركاءكم) إنما أضاف الشركاء إليهم من حيث إن الأصنام في الحقيقة لم تكن شركاء لله ، وإنما هم جعلوها شركاء فقال : شركاءكم ، أي : الشركاء بجعلكم . ويحتمل أن يقال : شركاءكم ، أي : شركاءكم في

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٧٩ .

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣١٧ ، وانظر التفسير الكبير ٢٦/ ٢٤٥ ، روح المعاني ٢٢/ ٢٠٣ .

النار لقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وهو قريب» (١).

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾.

أي: أم معهم كتاب من عند الله يقول بأنهم شركاؤه سبحانه. فالضمير في (هم) في (آتيناهم) يعود على المعبودين من الأصنام أو غيرهم من الشركاء مع الله. ويحتمل أن يكون الضمير عائدًا على المشركين، أي: أم مع المشركين كتاب من عند الله يأمرهم بعبادة الشركاء فهم على بينة منه وحجة؟

جاء في (الكشاف) في قوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾: «أم معهم كتاب من عند الله ينطق بأنهم شركاؤه فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب. أو يكون الضمير في (آتيناهم) للمشركين كقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الروم: ٣٥] (٢) ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢١] (٣)» (٤).

وجاء في (البحر المحيط): «فهل معهم من الله كتاب فيه إذنه لهم بالشفاعة... والظاهر أن الضمير في (آتيناهم) عائد على الشركاء لتناسب الضمائر... ومعناه: أن عبادة هؤلاء إما بالعقل، ولا عقل لمن يعبد ما لا يخلق من الأرض جزءًا من الأجزاء ولا له شرك في السماء. وإما بالنقل ولم نؤتِ المشركين كتابًا فيه أمر بعبادة هؤلاء، فهذه عبادة لا عقلية ولا نقلية» (٥).

فدلّ ذلك على أنهم ليس عندهم دليلٌ عقليٌّ ولا نقليٌّ في عبادة هؤلاء

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٤٤ـ٢٤٥.

(٢) يعني قوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾.

(٣) يعني قوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾.

(٤) الكشاف ٢/ ٥٧٩ ـ ٥٨٠.

(٥) البحر المحيط ٧/ ٣١٧ـ٣١٨، وانظر التفسير الكبير ٢٦/ ٢٤٥.

وليس ذلك إلا تزيين الظالمين بعضهم لبعض ووعدهم بالشفاعة، وليس ذلك إلا غرورًا وإضلالاً من الشيطان. جاء في (التفسير الكبير): «فوعدُ بعضهم بعضًا ليس إلا غرورًا غرّهم الشيطان وزيّن لهم عبادة الأصنام»(١).

ونفى وعد الظالمين بعضهم بعضًا نفيًا مؤكدًا بـ (إنْ)، وأثبته بـ (إلا) التي تفيد الحصر فقال: ﴿ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ و(إنْ) من الأدوات التي تفيد توكيد النفي(٢).

* * *

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١].

لما بيّن سبحانه للمشركين عدم قدرة الأصنام على شيء، وأن معبوديهم لم يخلقوا شيئًا في الأرض، وليس لهم شيء في السماء؛ ذكر سبحانه أنه هو الذي يمسك السماوات والأرض، ويحفظهما من الزوال والاضمحلال أو الانتقال من مكانهما، وليس لمعبوديهم وشركائهم شيء، فهي أحقر من ذلك، كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحج: ٦٥].

جاء في (البحر المحيط): «ولما بيّن تعالى فساد أمر الأصنام ووقف الحجة على بطلانها؛ عقّبه بذكر عظمته وقدرته ليتبين الشيء بضده، وتتأكد حقارة الأصنام بذكر عظمة الله، فقال: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ ﴾ والظاهر أن معناه أن تنتقلا عن أماكنهما وتسقط السماوات عن علوّها»(٣).

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٤٥.

(٢) انظر كتابنا (معاني النحو ٤/ ٢٣٣ وما بعدها).

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣١٨.



وجاء في (التفسير الكبير): «ثم لما بين أنه لا خلق للأصنام ولا قدرة لها ولا على جزء من الأجزاء؛ بيّن أن الله قدير بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾»(1).

﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾.

قوله سبحانه: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ قد يكون على سبيل الافتراض، والتقدير: وإن حصل ذلك على سبيل الفرض؛ فإنه لا يمسكهما أحد من بعده، فهو الذي يمسكهما ويحفظهما إن شاء.

أو يكون ذلك لما سيحصل يوم القيامة، فإن الأرض تُبدَّل والسماوات، وإن السماء تُطوى كطيِّ السجل للكتب، كما قال سبحانه: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وقال: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

واللام في (لئن) للقسم، و(إن أمسكهما) جواب للقسم، و(إنْ) نافية مؤكدة، و(من) في قوله: (من أحد) زائدة للاستغراق، أي: لا يمسكهما من أحد أيّ أحد على سبيل الاستغراق.

جاء في (البحر المحيط): «﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾: (إنْ) تدخل غالبًا على *الممكن، فإنْ قدّرنا دخولها على الممكن فيكون ذلك باعتبار يوم القيامة* عند طيِّ السماء ونسف الجبال، فإن ذلك ممكن ثم واقع بالخبر الصادق، أي: ولئن جاء وقت زوالهما. ويجوز أن يكون ذلك على سبيل الفرض، أي: ولئن فرضنا زوالهما، فيكون مثل (لو) في المعنى...

---

(1) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٤٥.

و(من) في (من أحد) لتأكيد الاستغراق ، و(من) في (مِن بَعْدِهِ) لابتداء الغاية ، أي : من بعد ترك إمساكه» [(١)] .

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ .

(حليمًا) أي : لا يعجل العقوبة وهم مستحقوها .

و(غفورًا) لمن يتوب من ذنبه . جاء في (الكشاف) في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ : «غير معاجل بالعقوبة حيث يمسكهما وكانتا جديرتين بأن تُهدّا هدًّا لعظم كلمة الشرك كما قال : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم : ٩٠]» [(٢)] .

وجاء في (التفسير الكبير) : «﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ كان حليمًا ما ترك تعذيبهم إلا حلمًا منه ، وإلا كانوا يستحقون إسقاط السماء وانطباق الأرض عليهم ، وإنما أخّر إزالة السماوات إلى قيام الساعة حلمًا . . .

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ حليمًا حيث لم يعجل العقوبة في إهلاكهم بعد إصرارهم على إشراكهم ، و(غفورًا) يغفر لمن تاب ويرحمه وإن استحق العذاب» [(٣)] .

وقدّم الحلم على المغفرة فقال : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ لأن إشراكهم يقتضي تعجيل العقوبة لولا حلمه سبحانه .

ونحو ذلك قوله : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣١٨ ، الكشاف ٢/ ٥٨٠ .

(٢) الكشاف ٢/ ٥٨٠ .

(٣) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٤٥ .

فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٢ـ٤٤].

فقال: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ كما قال في فاطر، وذلك لأن الكلام في الشرك في الموضعين فكانت الفاصلة واحدة، وهي قوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾.

في حين قدّم المغفرة على الحلم في الكلام على المسلمين حيث ورد ذلك في القرآن الكريم، وذلك في أربعة مواضع وهن قوله سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٥، المائدة: ١٠١].

وقوله: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وهي من لطائف التعبير، فإن الله يغفر للمسلمين ذنوبهم ولا يغفر للمشركين ذنوبهم حتى يسلموا، بل إن إشراكهم يقتضي تعجيل العقوبة لولا حلمه سبحانه.

والفرق واضح بين الأمرين.

وقد تقول: لقد قال سبحانه في سورة الحج: ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحج: ٦٥].

فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ فقال: ﴿ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ولم يقل: (حليم غفور) كما قال في آية فاطر: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ بذكر الحلم والمغفرة مع أن كلا الموضعين في إمساك السماوات من الوقوع أو الزوال، فما الفرق؟

والجواب ـ والله أعلم ـ أن المقام في سياق آية الحج في ذكر النعم، فقد قال سبحانه في الآية: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ ﴾ [الحج: ٦٥] وكل

ذلك من مظاهر رحمته سبحانه. ثم قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ مناسبة للمقام الذي وردت فيه.

ثم إن الكلام على الناس عمومًا وليس على المشركين، فقد قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ فناسب ذكر الرأفة الرحمة بالناس.

فناسب كل تعبير المقام الذي ورد فيه.

ومن الملاحظ أنه قدّم الرأفة على الرحمة في الآية فقال: ﴿ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ والرأفة أبلغ من الرحمة(١). وقيل: هي أشد الرحمة، والرأفة أرق من الرحمة(٢)، وذلك مناسبة لما ورد في الآية، فقد سبق فيها ما هو أكبر وأبلغ، فقد قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وهذه النعمة أكبر مما بعدها وهي قوله: ﴿ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ فإن جريان الفلك جزء من تسخير ما في الأرض. فناسب تقديم ما هو أبلغ وهو الرأفة. وهذا من دقائق التعبير، والله أعلم.

* * *

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٢ ـ ٤٣].

قيل: إن قريشًا والعرب بلغهم أن أهل الكتاب كذّبوا رسلهم، فأقسموا بالله أقوى الأيمان وآكدها لئن جاءهم نذير ليكوننّ أهدى من الأمم المكذبة لرسلهم، فلما جاءهم نذير من أنفسهم عرفوا صدقه وأمانته؛ ما زادهم إلا

---

(١) الفروق اللغوية ٢٠٧.
(٢) لسان العرب (رأف).

ابتعادًا ونفورًا وتكذيبًا له.

جاء في (تفسير ابن كثير): «يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم قبل إرسال الرسول إليهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم، أي: من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل. قاله الضحاك وغيره، كقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٦-١٥٧].

وكقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الصافات: ١٦٧-١٧٠].

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وهو محمد ﷺ بما أنزل معه من الكتاب العظيم، وهو القرآن المبين ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾، أي: ما ازدادوا إلا كفرًا إلى كفرهم. ثم بيّن ذلك بقوله: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: استكبروا عن اتباع آيات الله» [1].

وجاء في (الكشاف): «بلغ قريشًا قبل مبعث رسول الله ﷺ أن أهل الكتاب كذّبوا رسلهم فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم، فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم. فلما بعث رسول الله ﷺ كذّبوه» [2].

وقوله سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ يعني أبلغ الأيمان وآكدها وأقواها. جاء في (روح المعاني) في قوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾:

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٦٢، وانظر فتح القدير ٤/ ٣٤٥.
(٢) الكشاف ٢/ ٥٨٠.

«أي: حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم»[(١)].

و(ليكوننّ) جواب مؤكد بنون التوكيد الثقيلة.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾.

لم يقل: (فلما جاءهم نذير زادهم نفورًا) وإنما جاء بـ (ما) و(إلا) للحصر، أي: لم يزدهم مجيئه إلا كفرًا وابتعادًا عن الحق.

كما لم يقل: (فلما جاءهم نذير ما ازدادوا إلا نفورًا) فيسند الزيادة إليهم، وإنما قال: ﴿ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ فأسند الزيادة إلى النذير وما جاء به من الهدى.

جاء في (الكشاف): ﴿ مَّا زَادَهُمْ ﴾ إسناد مجازي، لأنه هو السبب في أن زادوا أنفسهم نفورًا عن الحق وابتعادًا عنه، كقوله تعالى: ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٢٥]»[(٢)].

﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ﴾.

قوله: (استكبارًا) أي: إن زيادة نفورهم بسبب استكبارهم، فهو مفعول لأجله.

وقيل: هو حال، أي مستكبرين. والتعبير يحتملهما.

ولم يقل: (مستكبرين) للتوسع في المعنى وذلك ليجمع المعنيين.

وقوله: (مكر السيّئ) معطوف على (استكبارًا) فهو مفعول لأجله أو حال. أي الحامل لهم على النفور الاستكبار والمكر السيّئ. أو حال بمعنى مستكبرين وماكرين.

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ٢٠٥.
(٢) الكشاف ٢/ ٥٨٠.

والمكر السيّئ هو الخداع والكيد والحيلة والعمل القبيح. جاء في (لسان العرب): «المَكر: احتيال في خفية، [وقيل]: المكر الخديعة والاحتيال... وفي حديث الدعاء: اللهم امكر لي ولا تمكر بي. قال ابن الأَثير: مكر الله إِيقاع بلائه بأَعدائه دون أَوليائه» (١).

وقد ذكرنا معنى المكر في آية سابقة.

وقوله: (مكر السيِّئ) من إضافة الموصوف إلى صفته. وأصله (المكر السيّئ). ونحو ذلك (دار الآخرة) في قوله سبحانه: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩] أي: الدار الآخرة، وقوله: (جانب الغربي) في قوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤] أي: الجانب الغربي، وقولهم: (مسجد الجامع) أي: المسجد الجامع. أو على تقدير محذوف، أي: (دار الحياة الآخرة) و(جانب المكان الغربي) و(مسجد المكان الجامع) (٢).

جاء في (البحر المحيط): ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ مفعول من أجله، أي: سبب النفور وهو الاستكبار، و(مكر السيّئ) معطوف على (استكبارًا) فهو مفعول من أجله أيضًا. أي الحامل لهم على الابتعاد من الحق هو الاستكبار والمكر السيّئ وهو الخداع الذي ترومونه برسول الله ﷺ والكيد له... والمؤمنين.

ومكر السيّئ من إضافة الموصوف إلى صفته» (٣).

---

(١) لسان العرب (مكر).

(٢) انظر شرح الأشموني ٢/ ٢٥٠ (باب الإضافة)، شرح الرضي على الكافية ٢/ ٢٤٣ وما بعدها.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣١٩، وانظر روح المعاني ٢٢/ ٢٠٥، فتح الرحمن ٥/ ٤٥٩، فتح القدير ٤/ ٣٤٥.

وقال: (مكر السيّئ) ولم يقل: (المكر السيّئ) ليجمع أكثر من معنى، فقد يراد به صفة المكر كما قال تعالى في الآية: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ فوصف المكر بأنه سيّئ، أو بتقدير مضاف محذوف، أي مكر العمل السيّئ، أو ضرّ المكر السيّئ ونحوه[1].

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

أي: لا يحيط وبال المكر السيّئ إلا بمن مكر ودبّر. جاء في تفسير (ابن كثير): «أي وما يعود وبال ذلك إلا على أنفسهم دون غيرهم»[2].

وقال: (يحيق) ولم يقل: (يحيط) ولا (يلحق) لأن (يحيق) لا يستعمل إلا في المكروه.

جاء في (البحر المحيط): ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ أي: يحيط ويحلّ، ولا يستعمل إلا في المكروه»[3].

وجاء في (الفروق اللغوية): «لا يقال: (حاق) إلا في نزول المكروه فقط. تقول: حاق به المكروه يحيق حيقًا وحيوقًا. ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود: ٨] يعني العذاب؛ لأنهم كانوا إذا ذكر لهم العذاب استهزؤوا به وأراد جزاء استهزائهم»[4].

ولم يرد الفعل (حاق) في القرآن إلا في نزول المكروه، كقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥] وغيره.

ولم يقل: (يلحق) وذلك أن في (حاق) معنى إحاطة المكروه بهم،

---

(١) انظر فتح القدير ٤/ ٣٤٥، التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٣٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٦٢.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٢٠.

(٤) الفروق اللغوية (حاق).

وهي فوق اللحوق. جاء في (التفسير الكبير): «أما في قوله: (يحيق) فهي أنها تنبئ عن الإحاطة التي هي فوق اللحوق، وفيه من التحذير ما ليس في قوله: ولا يلحق أو ولا يصل» (١).

بخلاف (أحاط) فإنه يكون في الخير وغيره، ومن ذلك قوله تعالى في وعد الله المسلمين الغنائم: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً...﴾ [الفتح: ٢٠] إلى أن يقول: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ [الفتح: ٢١]، وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقد يكون في المكروه، كقوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢]، وقوله: ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: ٨١].

لقد قال هنا سبحانه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

وقد قال في آية سابقة في السورة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

فذكر في الآية أن المكر يبور، أما الذين مكروا السيئات فلهم عذاب شديد وذلك في الآخرة.

أما في هذه الآية فقد ذكر أن المكر السيّئ لا يحيق إلا بأهله، أي بمن مكر وبمن أعان على المكر ورضي بذلك، فقد قال سبحانه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ ولم يقل: (بالماكر) بل يحيق به وبمن أعان عليه وأشار به وغيرهم ممن كان له شيء فيه، ويدل على ذلك قوله سبحانه في قوم صالح: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠ ـ ٥١] فقد دمرهم وقومهم أجمعين.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

وعلى هذا تكون عاقبة المكر السيّئ أن يبور المكر، أي: يهلك ويفسد، وعاقبة أهل المكر السيّئ أن تحيق بهم عاقبة مكرهم في الدنيا والآخرة.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ بإسناد المكر إليه سبحانه فذلك جزاء المكر، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]. جاء في (لسان العرب): «قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال أهل العلم بالتأويل: المكر من الله تعالى جزاءٌ سُمّي باسم مكر المُجازَى، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ فالثانية ليست بسيئة في الحقيقة، ولكنها سميت سيئة لازدواج الكلام، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ﴾ فالأَول ظلم والثاني ليس بظلم، ولكنه سمي باسم الذنب ليُعلم أَنه عِقاب عليه وجزاء به»[١].

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

أي: فهل ينتظرون إلا سنة الأولين.

وسنة الأولين: «إنزال العذاب على الذين كذبوا برسلهم من الأمم قبلهم، وجعل استقبالهم لذلك انتظارًا له منهم»[٢].

وجاء في (فتح الرحمن): «﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: هل ينتظرون هؤلاء إلا نزول العقاب بهم كما نزل بمن تقدمهم»[٣].

وجاء في (البحر المحيط): «وسنة الأولين إنزال العذاب على الذين كفروا برسلهم من الأمم، وجعل استقبالهم لذلك انتظارًا له منهم... وبيَّن

---

(١) لسان العرب (مكر).

(٢) الكشاف ٢/ ٥٨٠.

(٣) فتح الرحمن ٥/ ٤٦٢.

تعالى الانتقامَ من مكذبي الرسل عادةً لا يبدِّلها بغيرها ولا يحوِّلها إلى غير أهلها»[١].

ومعنى ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ﴾: (فهل ينتظرون) كما مر. جاء في (روح المعاني): «﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون. وهو مجاز بجعل ما يستقبل بمنزلة ما ينتظر ويتوقع»[٢].

لقد قال سبحانه: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ﴾ ولم يقل: (فهل ينتظرون) لأن الانتظار فيه تمهل وإبطاء. وقد حذف من الفعل للدلالة على تعجيل العقوبة والله أعلم[٣].

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ﴾.

أي: لا يقدر أحد أن يبدل سنة الله في المكذبين فيبدل العذاب بالثواب أو أن يضع غيره بدلاً عنه.

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ أي: لا يتحول العذاب إلى غير مستحقه.

فالتبديل أن يبدّل العذاب بغيره.

والتحويل أن يحوّل إلى غير مستحقه.

جاء في (فتح القدير): «﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ﴾ أي: لا يقدر أحد أن يبدلّ سنّة الله التي سنّها بالأمم المكذبة من إنزال عذابه بهم بأن يضع موضعه غيره بدلاً عنه

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ بأن يحوّل ما جرت به سنّة الله من العذاب

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٢٠.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ٢٠٦.

(٣) انظر كتابنا (على طريق التفسير البياني) ١/ ٣٦٠ في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ [الحديد: ١٣].

فيدفعه عنهم ويضعه على غيرهم. ونفي وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفي وجودهما»[١].

وجاء في (التفسير الكبير) أن «الله يأتي بسنة لا تبديل لها ولا تحويل عن مستحقها...

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ﴾ حصل العلم بأن العذاب لا تبديل له بغيره.

وبقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ حصل العلم بأن العذاب مع أنه لا تبديل له بالثواب لا يتحول عن مستحقه إلى غيره فيتم تهديد المسيء»[٢].

ونفى الفعل (تجد) بـ (لن) للتوكيد، فإن (لن) تفيد توكيد النفي[٣].

وكرر (لن تجد) ولم يقل: (فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً) وذلك للزيادة في التوكيد، فإن التكرار يفيد التوكيد كما هو معلوم. فأكد التعبير مرتين، مرة بـ (لن) ومرة أخرى بالتكرار، وذلك للزيادة في التحذير.

والمخاطب بقوله: (لن تجد) يحتمل أن يكون كل سامع ورسول الله ﷺ أولهم.

جاء في (التفسير الكبير): «المخاطب بقوله: (فلن تجد) يحتمل وجهين...

أحدهما: أن يكون عامًّا كأنه قال: فلن تجد أيها السامع لسنة الله تبديلاً.

والثاني: أن يكون مع محمد ﷺ»[٤].

---

(١) فتح القدير ٤/ ٣٤٥.

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٤٧.

(٣) انظر الكشاف ١/ ١٩٢، ١/ ٥٤٧، وانظر كتابنا (معاني النحو) ٣/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

(٤) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٤٧.



وجاء في (التحرير والتنوير): «والخطاب في (لن تجد) لغير معيّن فيعمُّ كلَّ مخاطب، وبذلك يتسنّى أن يسير هذا الخبر مسير الأمثال. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ وتهديد للمشركين» (١).

ومن لطائف التعبير أن الله سبحانه قال في سورة الإسراء: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧].

فقال: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾.

وقال في سورة الأحزاب: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

فقال: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

وقال في سورة الفتح: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣].

فقال: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

فذكر في كل موضع أمرًا واحدًا: التحويل أوالتبديل.

وقال في سورة فاطر: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

فجمع الأمرين: التبديل والتحويل.

وكل تعبير مناسب لسياقه الذي ورد فيه.

فقد قال في سورة الإسراء: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦ـ٧٧].

فالسياق في الكافرين وهم كفار مكة، فقد همُّوا بقتل الرسول فخرج

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٣٧.

مهاجرًا إلى المدينة. جاء في (البحر المحيط): «واستفزازهم هو ما ذهبوا إليه من إخراجه من مكة كما ذهبوا إلى حصره في الشعب، ووقع استفزازهم هذا بعد نزول الآية، وضيّقوا عليه حتى خرج، واتبعوه إلى الغار، ونفذ عليهم الوعيد في أن لم يلبثوا خلافه إلا قليلاً يوم بدر. وقال الزجاج حاكيًا أن استفزازهم ما أجمعوا عليه في دار الندوة من قتله. و(الأرض) على هذا الدنيا» [١].

أي: لو أخرجوك من الأرض لم يلبثوا بعدك إلا قليلاً وسيهلكون، ولا يتحول إخراجك إلى بقائهم ودوامهم.

فقال: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ ذلك أنهم أرادوا تحويله عن الأرض إلى غيرها، فذكر أنه لا يتحول إخراجه إلى بقائهم ودوامهم، ولا يتحول العقاب إلى غيرهم، فناسب قوله: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾.

وأما آية الأحزاب ففي المنافقين، فقد قال سبحانه: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۝٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠ ـ ٦٢].

أي: لئن لم ينته هؤلاء عما هم فيه من السوء والأذى لنسلطنّك عليهم، ثم لا يجاورونك في المدينة إلا قليلاً، وأينما وُجدوا أُخذوا وقُتّلوا تقتيلاً، وذلك لذلتهم وقلتهم، وتلك سنة الله لا تُبدّل. فقال: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: لا يُبدّل القتل بغيره.

فناسب قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ السياقَ الذي ورد فيه.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٦٢.



وأما آية الفتح ففي قتال الذين كفروا ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح: ٢٢ ـ ٢٣] أي : لا يكون لهم نصر بدل الهزيمة ، فليس لهم ولي ولا نصير ، فهم ضعفاء والمؤمنون أقوياء ، وعدهم الله مغانم كثيرة يأخذونها كما في الآيات قبلها ، فناسب أن يقول : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ فلا تتبدل هزيمتهم بنصر .

فآية الإسراء نزلت والمسلمون مستضعفون ، وقد همّ الكفار بقتل الرسول ﷺ فقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٧] أي : لا يتحول قتلك إلى بقائهم ودوامهم بعدك .

وآيتا الأحزاب والفتح نزلتا والمسلمون أقوياء ، والمنافقون والكفار ضعفاء ، فذكر عدم التبديل فيهما .

فلا يبدَّل عقابهم بغيره ، فناسب ذكر عدم التبديل .

وأما في آية فاطر فقد ذكر للكافرين صفتين : الاستكبار في الأرض ومكر السيّئ .

أما المكر السيّئ فلا يتحول عن أهله بل يصيبهم هم .

وأما الاستكبار في الأرض فلا يبدل الله عقوبته خيرًا ، بل يعذبهم به ، فذكر فيهم عدم التحويل وعدم التبديل ، فقال : ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ .

فكان كل تعبير مناسبًا لسياقه الذي ورد فيه .

وهذا من لطائف التعبير .

وهناك لطيفة أخرى وهي أنه قال في الإسراء : ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ فنفى الفعل (تجد) بـ (لا) .

وقال في الآيات الأخرى : ﴿وَلَن تَجِدَ﴾ فنفاه بـ (لن) .

ولعل ذلك أن ما ذكره من الاستفزاز في الأرض في آية الإسراء قد حصل أو كاد ، فقد حاولوا قتل الرسول ، فنفى بـ (لا) ؛ لأن (لا) قد تكون لنفي الحال كما تكون لنفي الاستقبال وذلك نحو قوله تعالى : ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ [النمل : ٢٠] ، وقوله : ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ [الصافات : ٩٢] وهذا لنفي الحال .

وقد تكون لنفي الاستقبال كقوله تعالى : ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة : ١٧٤] [1] . فنفى بـ(لا) لأن الأحداث واقعة أو تكاد ، كما قال تعالى : ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ و(كاد) ـ كما هو معلوم ـ من أفعال المقاربة .

فلما كان ما ذكره في الإسراء للحال أو القريب من الحال نفى بـ (لا) .

أما الآيات الأخرى فنفيها في الاستقبال ؛ لأن أحداثها لو وقعت فإنها ستكون في الاستقبال ، كقوله تعالى في (الأحزاب) : ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ . . .﴾ [الأحزاب : ٦٠] ، وقوله في (الفتح) : ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الفتح : ٢٢] .

فهو افتراض .

وكذلك ما جاء في (فاطر) : ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ . . .﴾ أي : ينتظرون .

فناسب النفي بـ(لن) ؛ لأن (لن) لنفي الاستقبال .

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه والله أعلم .

* * *

---

(١) انظر كتابنا (معاني النحو) ٤/ ٢٤١ وما بعدها .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر : ٤٤].

لما ذكر سبحانه سنة الله في إهلاك المكذبين قال : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ . . . ﴾ فنبههم بما كانوا يمرون عليهم من آثار هلاكهم ، وأنهم إن أصرّوا على حالهم وتكذيبهم فإنه سيصيبهم ما أصابهم من الدمار والهلاك .

جاء في (التفسير الكبير) للرازي : «لما ذكر أن للأولين سنّة ، وهي الإهلاك ؛ نبههم بتذكير حال الأولين ، فإنهم كانوا مارّين على ديارهم رائين لآثارهم ، وأملهم كان فوق أملهم ، وعملهم كان دون عملهم» [1].

وجاء في (الكشاف) : «واستشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه في مسايرهم ومتاجرهم في رحلهم إلى الشام والعراق واليمن من آثار الماضين وعلامات هلاكهم» [2].

وقال : ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فقال : (كان عاقبة) بالتذكير ، ولم يقل : (كانت) ذلك أنه أراد بالعاقبة معنى العذاب ، وهو مذكّر ، فذكّر الفعل لمعنى المذكّر. وكل ما ورد في القرآن من تذكير العاقبة فهي بمعنى العذاب .

وإذا أنثها فهي بمعنى الجنة ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٥] [3].

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٤٨ .

(٢) الكشاف ٢/ ٥٨٠ ، وانظر روح المعاني ٢٢/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

(٣) انظر كتابنا (معاني النحو) ٢/ ٧٩ وما بعدها ، وكتاب (مراعاة المقام في التعبير القرآني) ١٠٦ .

﴿ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ ﴾ .

أي : وقد كانوا أشد منهم قوة ، والواو واو الحال[١] .

وفي سورة الروم : ﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ [الروم : ٩] .

فقال في فاطر : ﴿ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ ﴾ بالواو .

وقال في الروم : ﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ ﴾ من دون واو .

ذلك أن المجيء بالواو يدل على أن المخاطب عالم بالأمر ، وعدم ذكر الواو يدل على أن المخاطب لا يعلم الأمر وقد أُعلم به . جاء في (الكشاف) : «فإن قلت : ما الفرق بين قولك : (أتمدّني بمال وأنا أغنى منك؟) وبين أن تقوله بالفاء؟

قلت : إذا قلته بالواو فقد جعلت مخاطبي عالمًا بزيادتي عليه في الغنى واليسار ، وهو مع ذلك يمدُّني بالمال .

وإذا قلته بالفاء فقد جعلته ممن خفيت عليه حالي ، فأنا أخبره الساعة بما لا أحتاج معه إلى إمداده ، كأني أقول له : أنكر عليك ما فعلت فإني غني عنه»[٢] .

فجعل الواو للحال المعلومة .

وذلك أنه قال في فاطر : ﴿ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ ﴾ ولم يزد على ذلك في ذكر حالهم .

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٢٠ ، وانظر روح المعاني ٢٢/ ٢٠٧ .

(٢) الكشاف ٢/ ٤٥٢ ، وانظر كتابنا (معاني النحو) ٢/ ٣٦٢ وما بعدها .

وقال في الروم: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ .

فزاد على ما ذكر في فاطر أنهم أثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات .

فما في فاطر معلوم لهم ، وما في الروم إخبار بأمور أخرى لا يعلمونها فأخبرهم بها .

جاء في (التفسير الكبير): «قال هناك [يعني في الروم]: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ﴾ من غير واو .

وقال ههنا: بالواو فما الفرق؟ . . .

ولا شك أن هذه العبارة الأخيرة [يعني آية فاطر] تفيد كون الأمر الثاني في الظهور مثل الأول بحيث لا يحتاج إلى إعلام من المتكلم ولا إخبار .

إذا علمت هذا فنقول المذكور ههنا كونهم أشد منهم قوة لا غير . ولعل ذلك كان ظاهرًا عندهم فقال بالواو ، أي: نظركم كما يقع على عاقبة أمرهم يقع على قوتهم .

وأما هناك فالمذكور أشياء كثيرة ، فإنه قال: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ﴾ . وفي موضع آخر قال: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [غافر: ٨٢] ولعل علمَهم لم يحصُل بإثارتهم الأرض أو بكثرتهم ، ولكن نفس القوة ورجحانهم فيما عليهم كان معلومًا عندهم» [١] .

ومما لوحظ في نحو هذا التعبير أنه قال سبحانه في غافر: ﴿۞أَوَلَمۡ

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٤٨ .

يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [غافر : ٢١].

فقال في هذه الآية : ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ﴾ فقال : ﴿ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ﴾ بذكر (كانوا).

وقال في فاطر : ﴿ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ﴾ وكذلك في آية الروم (٩) من دون ذكر (كانوا).

وقال في غافر : ﴿ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ بذكر (هم).

ولم يذكر الضمير (هم) في آيتي فاطر والروم.

وذلك للتوكيد في آية غافر بذكر (هم) ، فإن (هم) توكيد للضمير في (كانوا) وهو الواو[1].

وبذكر (كانوا) في غافر في قوله : ﴿ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ﴾ ولم يقل : (كانوا) في آيتي فاطر والروم ، وذلك للتوكيد أيضًا. وذلك أنه ذكر في (غافر) ما لم يذكره في فاطر والروم.

فقد قال في أول غافر : ﴿ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ ﴾ [غافر : ٣].

وذكر تكذيب الذين من قبلهم ، وأنه همَّت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وقال : ﴿ وَجَـٰدَلُواْ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾.

وهذه صفات وأحوال لم يذكرها في الروم وفاطر.

فقد قال في غافر : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَـٰدَلُواْ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر : ٥].

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٤٥٧.

وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢٢].

وختم السورة بعاقبة الذين من قبلهم وما أصابهم من الهلاك (٨٢ ـ ٨٥).

وليس في فاطر ولا في الروم مثل ذلك التفصيل في نحو هذا الأمر.

فكان المناسب أن يؤكد بذكر (كانوا) وبذكر (هم) في آية غافر. جاء في (ملاك التأويل) في قوله: ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: «وسبب ذلك أنه تقدم في أول هذه السورة من الإخبار بسوء مراجعتهم وقبيح معاملتهم مع أنبيائهم ما يوجب سريع الأخذ وينافر التلطف، وذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥] فلما تقدّم هذا من جدالهم بالباطل وما همّوا به من أخذ رسلهم وامتحانهم زائدًا إلى التكذيب؛ ناسب هذا تعجيل أخذهم، فوردت آية التنبيه على ذلك. ولهذا اختصت من التأكيد بما لم يرد مثله فيما تقدمها فقيل: ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ﴾ فوكّد بالضمير تخصيصًا وتعيينًا للمذكورين قبلُ من قوم نوح والأحزاب»[1].

وجاء في (كشف المعاني): «إن آية الروم لم يتقدمها قصص من تقدّم ولا ذكرهم فناسب إجمالها، ولذلك قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾.

وآية المؤمن الأولى، تقدّمها ذكر نوح عليه السلام والأحزاب، وهمُّ كل أمة برسولهم، فناسب ذلك بسط حالهم وإعادة لفظ (كانوا) و(هم) توكيدًا وإشارة إلى ثانية من تقدم ذكرهم»[2].

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٧٧٨ـ٧٧٩.

(٢) كشف المعاني في المتشابه من المثاني ٢٩٤.

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ .

لقد ذكر في أول السورة أنه سبحانه فاطر السماوات والأرض ، وذكر بعدُ أنه يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، فهو الذي يحفظهما من الزوال .

وذكر في هذه الآية أنه سبحانه لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض . فهو وحده الخالق لهما والحافظ لهما والمتصرف فيهما ، فإنه هو العليم القدير .

وفي هذه الآية تهديد كبير للكافرين المعاندين ، وقد عرفوا ما حلّ بالكافرين قبلهم من الهلاك والدمار . وقد أكّد هذا المعنى بأكثر من مؤكد ، فقال : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ ﴾ فجاء بلام الجحود بعد (كان) المنفية ، وهي تفيد توكيد النفي[(١)] .

ونفى (كان) بـ (ما) ، و(ما) تفيد توكيد النفي ، فهي آكد من (لم) في نفي الأفعال[(٢)] ، وأقوى من (ليس) في نفي الأسماء[(٣)] .

وجاء بـ (من) الاستغراقية في قوله : ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ ، وهي دالة على الاستغراق وتوكيد النفي .

وكرر (لا) فقال : ﴿ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ولم يقل : (في السماوات والأرض) ، والتكرار يفيد التوكيد كما هو معلوم .

وختم الآية بقوله : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ فأكّد الجملة بـ (إنّ) ،

---

(١) انظر مغني اللبيب ١/ ٢١١ ، شرح الأشموني ٣/ ٢٩١ ـ ٢٩٣ ، شرح الرضي على الكافية ٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧١ ، الكشاف ١/ ٥٤٨ ، ١/ ٥٦٤ .

(٢) معاني النحو ٤/ ٢٢٨ وما بعدها .

(٣) معاني النحو ١/ ٣١٦ وما بعدها .

وجاء بصيغتي المبالغة في (عليم) و(قدير).

فالتعبير مؤكد بكل مفرداته ويدل على عظيم علمه وقدرته.

جاء في (البحر المحيط): «فبعلمه يعلم جميع الأشياء، فلا يغيب عن علمه شيء، وبقدرته لا يتعذر عليه شيء»(١).

وجاء في (التفسير الكبير): «﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ بأفعالهم وأقوالهم. (قديرًا) على إهلاكهم واستئصالهم»(٢).

وجاء في (التحرير والتنوير): «﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ﴾: وجيء بلام الجحود مع (كان) المنفية لإفادة تأكيد نفي كل شيء يحول دون قدرة الله وإرادته...

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾... وقد حصر هذان الوصفان انتفاء أن يكون شيء يعجز الله؛ لأن عجز المريد عن تحقيق إرادته إما أن يكون سببه خفاء موضع تحقق الإرادة، وهذا ينافي إحاطة العلم، أو عدم استطاعة التمكن منه، وهذا ينافي عموم القدرة»(٣).

* * *

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر: ٤٥].

لقد ذكر ربنا أنه لو يؤاخذ الناس بما كسبوا من المعاصي والكفر والشرك ما ترك على ظهر الأرض من دابة بل لأهلكهم جميعًا. وهذا إشارة إلى

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٢٠.
(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٤٨.
(٣) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٣٩.

حلمه سبحانه ، فإنه لا يعجل العقوبة لعباده ، وإنما يؤخرهم إلى أجل مسمّى. قيل: هو يوم القيامة ، وقيل: حين لا يبقى على الأرض أحد مؤمن[١] ، وهو قبل يوم القيامة.

وقوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ قيل: أحد من بني آدم ، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ ، وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ فإن الضمير (هم) للعقلاء.

وقيل: عموم الدواب ، وذكر ضمير العقلاء تغليبًا ، لأن الإهلاك إنما هو بسببهم وشؤمهم.

جاء في (البحر المحيط): «ثم ذكر تعالى حلمه تعالى على عباده في تعجيل العقوبة فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ﴾ أي: من الشرك وتكذيب الرسل ، وهو المعنى في الآية التي في النحل وهو قوله: (بظلمهم). . .

﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ والضمير عائد على الأرض. . . ولما كانت حاملة لمن عليها استعير لها الظهر كالدابة الحاملة للأثقال ، ولأنه أيضًا هو الظاهر بخلاف باطنها»[٢].

وجاء في (الكشاف): «﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾على ظهر الأرض. ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ من نسمة تدب عليها ، يريد بني آدم.

وقيل: ما ترك بني آدم وغيرهم من سائر الدواب بشؤم ذنوبهم»[٣].

وجاء في (روح المعاني): «﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ جميعًا. . .

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٤٩.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٢٠.
(٣) الكشاف ٢/ ٥٨٠.

﴿ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ ﴾ وهو يوم القيامة ، فإن الضمير للناس لأنه ضمير العقلاء. ويوم القيامة هو الأجل المضروب لبقاء نوعهم. وقيل: هو لجميع من ذكر تغليبًا» [(١)] .

﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ .

فيجازي كلاًّ بحسب عمله ، وهو توعّد للمكذبين وتسلية للمؤمنين[(٢)] .

ومن الملاحظ أنه سبحانه قال في سورة النحل: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١].

وبين الآيتين تشابه واختلاف. ومن أوجه الاختلاف بينهما:

١ ـ أنه قال في فاطر: ﴿ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ .

وقال في النحل: ﴿ بِظُلْمِهِم ﴾ .

٢ ـ وقال في فاطر: ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ .

وقال في النحل: ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ .

٣ ـ ختم آية فاطر بقوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ .

وختم آية النحل بقوله: ﴿ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

وقد ذكرنا في كتابنا (من أسرار البيان القرآني) الغرض من هذا الاختلاف في موضوع (التشابه والاختلاف) فلا نعيد القول فيه[(٣)] .

* * *

(١) روح المعاني ٢٢/ ٢٠٧ .

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٢٠ ، الكشاف ٢/ ٥٨١ ، التفسير الكبير ٢٦/ ٢٤٩ .

(٣) من أسرار البيان القرآني ١٦٦ وما بعدها .



قائمة المراجع

- **الإتقان في علوم القرآن** للسيوطي - ط٣ - ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م.

- **أسئلة بيانية في القرآن الكريم** - الدكتور فاضل صالح السامرائي - ط٢ - ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م - دار ابن كثير - دمشق.

- **البحر المحيط** لأبي حيان الأندلسي - ط١ سنة ١٣٢٨هـ - مطبعة السعادة بمصر.

- **البرهان في علوم القرآن** للزركشي - تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم - ط١ - ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م - دار إحياء الكتب العربية.

- **تاج العروس شرح القاموس** - لمحمد مرتضى الزبيدي - منشورات مكتبة الحياة - بيروت - تصوير الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر - ١٣٠٦هـ.

- **التحرير والتنوير** - محمد الطاهر بن عاشور - دار سحنون للطباعة والنشر - تونس.

- **تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد** لابن مالك - تحقيق محمد كامل بركات - ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر.

- **التعبير القرآني** - الدكتور فاضل صالح السامرائي - ط٢ - ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م - دار ابن كثير - دمشق.



- **تفسير أبي السعود** - لأبي السعود بن محمد العمادي - تحقيق عبد القادر أحمد عطا - مكتبة الرياض الحديثة - الرياض .

- **تفسير القرآن العظيم** لابن كثير - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه .

- **التفسير الكبير** لفخر الدين الرازي - المطبعة البهية - مصر .

- **الجملة العربية والمعنى** - الدكتور فاضل صالح السامرائي - الطبعة الأولى - ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م - دار ابن كثير - دمشق .

- **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح** - ابن قيم الجوزية - مطبعة دار التأليف ٨ شارع يعقوب بمصر .

- **درة التنزيل وغرة التأويل** للخطيب الإسكافي - دار الكتب العلمية - بيروت .

- **الدر المصون في علم الكتاب المكنون** للسمين الحلبي - تحقيق أحمد محمد الخراط - دار القلم - دمشق .

- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** - السيد محمود الآلوسي - إدارة الطباعة المنيرية - دار إحياء التراث العربي .

- **شرح ابن يعيش للمفصل** للزمخشري - طبع ونشر إدارة الطباعة المنيرية .

- **شرح الأشموني** - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه .

- **شرح رضي الدين الإسترابادي على الكافية لابن الحاجب** - مطبعة الشركة الصحافية العثمانية - سنة ١٣١٠هـ .

ـ **على طريق التفسير البياني** ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م ـ دار ابن كثير ـ دمشق.

ـ **فتح الرحمن في تفسير القرآن** ـ مجير الدين بن محمد العليمي المقدسي ـ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ قطر.

ـ **فتح القدير** لمحمد بن علي الشوكاني ـ ط١ ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ـ سنة ١٣٤٩هـ.

ـ **الفروق اللغوية** لأبي هلال العسكري ـ نشر مكتبة القدسي ـ سنة ١٣٥٣هـ.

ـ **القاموس المحيط** لمجد الدين الفيروزابادي ـ ط٥ ـ شركة فن الطباعة ـ مصر.

ـ **كتاب سيبويه** ـ مصور على طبعة بولاق ـ نشر مكتبة المثنى ببغداد.

ـ **الكشاف عن حقائق التنزيل** لجار الله الزمخشري ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ـ سنة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م.

ـ **كشف المعاني في المتشابه من المثاني** ـ بدر الدين بن جماعة ـ تحقيق الدكتور عبد الجواد خلف ـ دار الوفاء ـ ط١ ـ ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م ـ مصر ـ المنصورة.

ـ **الكليات** لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان.

ـ **لسان العرب** لابن منظور ـ مصور على طبعة بولاق.

ـ **لمسات بيانية في نصوص من التنزيل** ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ ط٢ ـ ١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م ـ دار ابن كثير ـ دمشق.

ـ **مراعاة المقام في التعبير القرآني** ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ ط١ ـ ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م ـ دار ابن كثير ـ دمشق .

ـ**المصباح المنير** للفيومي ـ المكتبة العلمية ـ بيروت .

ـ **معاني القرآن** لأبي زكرياء يحيى بن زياد الفراء ـ مطبعة دار الكتب المصرية للتأليف والترجمة ـ ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م .

ـ **معاني النحو** ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م ـ دار ابن كثير ـ دمشق .

ـ **مغني اللبيب** عن كتب الأعاريب لابن هشام ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان .

ـ**المفردات في غريب القرآن** للراغب الأصفهاني ـ طهران .

ـ **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل** لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي ، تحقيق الدكتور محمود كامل أحمد ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

ـ **من أسرار البيان القرآني** ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ ط١ ـ ١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م ـ دار ابن كثير ـ دمشق .

ـ **همع الهوامع شرح جمع الجوامع** لجلال الدين السيوطي ـ ط١ ـ سنة ١٣٢٧هـ ـ مطبعة السعادة بمصر .

* * *



الفهرس

* * *



موضوع هذا الكتاب اختيارات من التعبير القرآني في " **القضاء** " و " **الجزاء** "، والنظر فيهما من الناحية الفنية البيانية.

" **القضاء** " بمعنى الحكم خصوصاً، فقضاء الله إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه، وهو الفصل والقطع، وبين القضاء والحكم عموم وخصوص.

و " **الجزاء** " المقصود به في كتاب الله تعالى إنما هو جزاء الله على الأعمال.

وهناك تقابل بياني وفني بين القضاء والجزاء كانت **سورة فاطر** ميداناً للتحليل الفني والتفسير البياني لإضاءة هذين المفهومين ولوازمهما وعلاقة كل منهما بالآخر وأثر ذلك في البيان القرآني في ميدان واسع رحيب.



ISBN 978-614-415-287-4



www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com